موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

(١٠)

الإيثار

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

www.mtenback.com
موقع الدكتور مرزوق بن تنباك

دار رواح للنشر والتوزيع

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موسوعة
القيم ومكارم الأخلاق
العربية والإسلامية

١٠

الإيثار

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ. د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

دار رواح

www.intenback.com
موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.intenback.com

ح مرزوق بن صنيتان بن تنباك ، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية/مرزوق بن صنيتان بن تنباك ... [أخ]. الرياض.

٥٢ ج؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

١-١٩٥-٣٨-٩٩٦٠ (ج ١٠)

١- الأدب العربي – موسوعات أ- ابن تنباك ، مرزوق بن صنيتان (م . مشارك)

ديوي ٨١٠,٣ ٢١/٢٠٧٨

رقم الإيداع : ٢١/٢٠٧٨

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

١-١٩٥-٣٨-٩٩٦٠ (ج ١٠)

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
توطئة	٥
الإيثار لغةً	٧
الإيثار اصطلاحًا	٩
أهمية الإيثار ومكانته بين مكارم الأخلاق	٩
الإيثار عند العرب	١٨
جدوى الإيثار وآثاره في الحياة الاجتماعية	٣٤
أثر التربية في تنمية شعور الإيثار	٤٦
البعد النفسي والأخلاقي لقيمة الإيثار	٦٤
الفهارس	٨١

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ

حَافِظ إِبْرَاهِيم

www.mtenback.com

توطئة:

الإيثار خلق عربي نبيل، تبلغ فيه النفس البشرية ذروة البذل والعطاء، وتسمو به إلى آفاق عليا، من إنكار الذات، وتمجيد روح الجماعة.

والإيثار لا يكون إلاّ من إنسان كريم الأصل، طيّب النِّجَار، من أشرف الناس نفسًا، وأكرمهم طبعًا، إنّه يُقدم ماله تضحية وأثرة لغيره على نفسه. وهي سجية يهبها الله لمن يشاء، وشيمة يطبعها في بعض خلقه، كما قال الشاعر:

لَيْسَ يُعْطِيْكَ للرَّجَـــاء ولاَ للخـــ ـــوْف، وَلَكِنْ يَلَذُّ طَعْـــمَ العَطَـاءِ

وقد تخلق بهذا الخلق الكريم العرب منذ القدم، وبلغوا فيه شأوًا بعيدًا تنقطـــع دونه أعناق الرجال. وعندما سطع نور الإسلام، مجّد هذا الخلق الأصيل، وأعلى مـــن شأنه، وسما به في مراتب بعيدة في الأخلاق، إذ حث النفوس علـــى تجـــاوز أنانياتهـــا الضيقة، وذواتها المنغلقة، وانطلق بها إلى فضاء رحب، لينفي عنها حبَّ الذات، ويحـــلّ محله حبَّ الخير للجميع. فتفنى تلك النفوس طائعة راضية، في سبيل أن يحيا غيرها حياة كريمة، تقدّم غيرها على ذاتها عندما يكون للخيار وللإيثار مجالاً.

فالإيثار قيمة خلقية سامية تؤدي إلى الاتحاد والتعاون والتناغم بين أفراد المجتمع الواحد؛ لأنها توصل إلى القلوب ألطافًا، وتثنيها محبة وانعطافًا، فتبعث على التنـــاصر والألفة، وتمنع من التخاذل والفرقة. فتثمر إخلاصًا ومصافاة ووفاء ومحاماة، وهذه أعلى مراتب الودّ والمحبة.

والإيثار يحصّن المجتمع من كلّ عوامل الهدم والدمار، إذ إن هذه الفضيلة الخلقية تحدث تغيرات جذرية في طبيعة العلاقات الاجتماعية، فتقود السلوك الفردي باتجـــاه تحقيق غايات جماعية مشتركة، ممّا يؤدي إلى تلاحم المجتمع وتماســـكه، وصمـــوده في مواجهة عواصف الدمار. فالإيثار أساس ازدهار المجتمعات وتقدمها واستقرارها، حـــين يعيش الجميع الذين يكثر فيهم المؤثرون على أنفسهم في أمان واطمئنان وسلام.

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الإيثار لغة:

الإيثار لغة: يُرَدُّ جذر (أَثَر) إلى ثلاثة أصول: يقول ابن فارس في مقاييسه[1]: الهمزة والثاء والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذِكْر الشيء، ورسم الشيء الباقي. وإذا تتبعنا هذه الأصول في معاجم اللغة نجدها تتفق غالبًا على نتائج تكاد لا تشذ عند أحد منهم، وجلّها لا تخرج عن رسوم لغوية ثابتة كما يأتي.

فمن الأصل الأول، قولهم: آثَرَهُ عليه: فضّله[2]، وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾[3]، وآثرت فلانًا على نفسي: من الإيثار.

قال الأصمعي: آثرتك إيثارًا: أي فضلتك، وفلان أثير عند فلان، وذو أُثْرة، إذا كان خاصًا. وقال الحطيئة يمدح عمر رضي الله عنه:

مَا آثَرُوْكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا ... لَكِنْ لأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِكَ الإِثَرُ

أي الخِيَرَةُ والإيثار.

وفي جمهرة اللغة[4]: وآثرت فلانًا بكذا وكذا أوثره إيثارًا: إذا فضلته، فأنا مُؤْثِرٌ وهو مُؤْثَر.

ومن هذا الأصل ما يعدُّ مقابلاً لمعنى ما سبق، وضدًا له، وهو الاستئثار: أي الاستبداد بالشيء والاختصاص به، دون الآخرين، جاء في اللسان[5] استأثر بالشيء

---

(1) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق :عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (١٣٦٦هـ)، ج١، ص ٥٣.

(2) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب دار صادر، دار بيروت، بيروت، (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م) (أثر)، ج٤، ص٧.

(3) سورة يوسف: الآية ٩١.

(4) ابن دريد: جمهرة اللغة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، (١٣٤٥هـ)، ج٣، ص٢١٨.

(5) ابن منظور: اللسان (أثر) ج٤، انظر ص ٦.

www.mtenback.com

على غيره: خصَّ به نفسه، واستبد به، والاستئثار الانفراد بالشيء ومنه حديث عمر،: فو الله ما أستأثر بها عليكم، ولا آخذها دونكم. والاسم من ذلك الأَثَـرَة، جـاء في القاموس المحيط[٦]: رجل: يستأثر على أصحابه، أي يختار لنفسه أشياء حسنة، والاسـم الأَثَرَةٌ. وقال الزمخشري في تفسير قول الرسول صلى اله عليه وسلم: «سَتَرَون بَعْـدِي أَثَرَةً». أي يستأثر أمراء الجور بالفيء[٧].

ومن الأصل الثاني، قولهم: أَثَرَ الحديثَ: حدَّث به، ورواه. فهو أثر. والحديث مأثور: أي يتحدث به الناس[٨]، وجاء في اللسان[٩]:

«والأثر: الخبر، والجمع آثار،... والأَثَرُ: مصدر قولك: أَثَرْتُ الحديث آثُرُه، إذا ذكرته عن غيرك».

ومن الأصل الثالث: الأَثَرُ: ما بقي مـن رسم الشيء، جاء في اللسان[١٠]:

«الأَثَرُ: بقية الشيء، والجمع آثار وأُثُور».

ومن هذه الأصول الثلاثة نستطيع أن نستشف معنى يجمعها وهـو «التأثـير»، وذلك عندما يمارس الإيثار فإنه يترك آثاراً حسنة في نفس الْمُؤْثِر، ويترك مثلها في نفس من أُثِرَ وفُضِّل، وهذه الآثار تنعكس على الطرفين بالحب، وبالصفاء، وتعمـق فيهمـا الإخلاص والوفاء، وتقوي روابط القربى، وتدني أواصر الإخاء بصلات لا تسـتطيعها

---

[٦] الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (١٩٨٧م)، (أثر)، ص٤٣٦.

[٧] الزمخشري، محمود بن عمر: أساس البلاغة، دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشـر، بيروت، (أثر)، ص ١١.

[٨] أحمد رضا: معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) (أثر) ج١، ص١٤٣.

[٩] ابن منظور: اللسان (أثر) ج٤، ص ٦.

[١٠] المصدر السابق، ص٥.

www.mtenback.com

القربى وحدها، ولكن الإيثار يفعل فعله في النفوس حين تقف جميع القيم الاجتماعية عاجزة عن غرس التلاحم بين الناس.

الإيثار اصطلاحًا:

مصطلح الإيثار مأخوذ من الأصل الأول الذي هو التفضيل والتقديم؛ فهو تفضيل الإنسان غيره على نفسه أو على إنسان آخر، جاء في التعريفات للجرجاني[11]: «الإيثار: أن يُقَدِّم غيره على نفسه، في النفع له، والدفع عنه، وهو النهاية في الأُخُوَّة».

وجاء في تفسير روح البيان[12]: «الإيثار عطاؤك ما أنت تحتاج إليه».

فالإيثار إذًا خلق محمود، بل هو الغاية في الكرم والتضحية في سبيل إسعاد الآخرين، ويقابله مصطلح الأَثَرَة الذي هو حب الذات والانفراد بالخير والنفع، جاء في المعجم الوسيط[13] : «الأثرة في الفلسفة: حب النفس وتطلق أخلاقيًا على من لا يهدف إلاّ إلى نفعه الخاص، وتقابل الإيثار». وعلى هذا تكون الأثرة خلق مذموم يأباها أصحاب النفوس الكبيرة.

أهمية الإيثار:

الإيثار قيمة خلقية سامية، فهو عماد البر الذي هو سبب الألفة؛ لما يوصل إلى القلوب من الراحة والتلاطف، ولذلك ندب الشرع إليه لما فيه من عموم المصلحة في الدنيا والآخرة، وفي الإيثار رضا الله سبحانه، ورضا الناس ونفعهم، وقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين به، وجعله وسيلة وسبيلاً لفلاحهم وعلو منزلتهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ

---

(11) الجرجاني، علي بن محمد بن علي: التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، القاهرة، ص٥٩.

(12) البروسوي، إسماعيل حقي: تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٤٠٥هـ)، ص٤٣٣.

(13) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، القاهرة، (١٩٦٠م) (أثر)، ج١، ص ٥.

www.mtenback.com

تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[14].

فالإيثار هو غاية الجود وهو بذل المال مع الحاجة إليه، والخصاصة هي شدة الحاجة لما يؤثر به، وعلى هذا المعنى رتب العلماء البذل على ثلاث مراتب، السخاء وهو أن يعطي المرء شيئًا ويمسك لنفسه شيئًا، يليه الجود، وهو أن يعطي الكثير من ماله ويكتفي بالقليل الذي يسد حاجته، أما الإيثار وهو ما نحن بصدد الحديث عنه، فهو بذل كل ما يملك المرء لحاجة الناس إليه وليس بعد بذل كل المال درجة من الإنفاق.

فالإيثار إذن هو أوسع أبواب العطاء وأكثر مجالات الإنفاق، وهو قيمة خلقية رفيعة تسود كل الخصال السامية التي تشكل بمجملها الإطار الكامل للأريحية المعطاءة الباذلة التي تسعد بالبذل مثلما يسعد الآخرون بالأخذ وهي أريحية تتمم البناء النفسي الصحيح، وإذا كانت درجات الإنفاق مثل الكرم والإحسان والمعروف صفات جليلة وخصال جميلة تعين النفس على حب الخير، وتدفعها إلى فعل المكارم، ومد يد المساعدة لذوي الحاجات والبائسين، كما تخفف عمن سطا عليهم الدهر، وصرعتهم شقوة الحياة، فإن هذه العوامل فعالة في غرس بذور المحبة بين الناس، وتوطيد علائق الألفة بين الأفراد[15]. من دعائم الترغيب في الكرم والتخلق به قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[16].

---

[14] سورة الحشر: الآية ٩.

[15] الدجوي: إتمام فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، تحقيق: علاء الدين زعتري، دار إقبال، ط١، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص ١٠٨

[16] سورة البقرة: الآية ٢٧٢.

www.mtenback.com

والإيثار أيضًا هو المعنى الرديف للمروءة تلك السمة الخلقية العظيمة التي تحمل النفس الإنسانية على فعل الخير، ودرء الشرّ. وبذلك تكون مفتاح عمارة الشخصية بالكمال الأخلاقي الذي يجنّبها السفه والانحطاط وينأى بها عن الجشع. وهي كذلك «عنوان علوّ الهمّة، وشرف النفس، ودليل الكرم. وهي من دواعي الألفة ودوام المحبة... فمن تجرّد من المروءة فقد سَفَلتْ نفسه وانحطّت أخلاقه، وقلّ إخوانه»[١٧].

والرابطة الأساسية التي تجمع صفتي الإيثار والمروءة تتجلّى في البذل.

فالبذل يكون في المال ويكون في النفس. وبذل النفس هو أعلى درجات الإيثار لأن المال يمكن أن يعوّض، ولكن التضحية بالنفس لايعدلها غالٍ ولا نفيس. ومن هنا عدّها الحكماء من المروءة التي هي باب كلّ خير فقالوا: «من المروءة أن يبذل الإنسان مالَه عند الحاجة، ونفسه عند النكبة، ويحفظك عند المغيب»[١٨].

ومن أروع صور الإيثار وأبدعها تلك الصورة البارعة التي رسمها الشاعر العربي عروة بن الورد بفعله وقوله، مقابل صورة الأَثَرَة عند غيره. فجسّم نوع الإيثار وجسّد قيم الجود حين يهزل ويعيش على الماء البارد في الوقت الذي يعطي طعامه للفقراء وأصحاب الحاجة، ولأن تصوير المعاناة جاءت على لسان شاعر جواد فقد عرف كيف يضع أبعاد الصورة التي يريد أن يخلدها بشعره وبجوده، مقارنًا حاله بحال من يستهزئ به واضعًا السبب بين أيدي المنشدين لشعره حتى أصبحت أبياته لغة يرددها الناس ويعيدها الزمن على كل لسان يرى الفارق بين الغنى والفقر، وتعيدها المناسبة كلما جاء ذكر للعطاء والثناء[١٩]:

---

[١٧] الدجوي: إتمام فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، ص ٦٣.

[١٨] المصدر السابق، ص ٦٤.

[١٩] عروة بن الورد: ديوان عروة بن الورد، تحقيق: كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، ص٣٠-٣١.

www.mtenback.com

اِنّي امْـــرُؤٌ عَـــافِي إِنَـــائِيَ شِـــرْكَةٌ وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَـــافِي إِنَـــائِكَ وَاحِـــدُ
أَتَهْزَأُ مِنّي أَنْ سَـــمِنْتَ وَأَنْ تَـــرَى بِوَجْهِي شُحُوْبَ الحَقِّ والحقُّ جَـــاهِدُ
أُقَسِّمُ جِسْمِي فِيْ جُسُـــومٍ كَثِـــيْرَةٍ وَأَحْسُو قَرَاحَ المَاءِ، وَالمَـــاءُ بَـــارِدُ

لقد سمت هذه المعاني الفاضلة بالإيثار إلى أعلى الدرجات، فأبرزت بهـــاءه في مقابل البخل والشّح اللذين هما من الرذائل النفسية الداعية إلى الســـقوط والانحطـــاط وتوليد الطمع. والطمع هو باب السوء لما يسببه من تكالب النفوس على طلب الزيـــادة ولو من غير طرقها المشروعة، وليس ما نراه من الجرائم الكثيرة مـــن ســـرقة وقتـــل وغيرهما إلا أثرًا سيئًا من آثار الحرص على الدنيا والطمع فيها، فلا يقف صاحبها عنـــد حدٍّ، ولا ينتهي إلى غاية، وتكون عاقبته الهلاك لا محالة[٢٠] وإذلال الكرامـــة بالشـــح والأنانية حتى لا تفلح النفس وصدق الله حيث قال: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢١].

وإذا تخلصت جبلة المرء من إشفاق النفوس وحرصها تمكنت فيها طباع الحمـــد وحب الثناء والإيثار، وقد عرف العرب بطبيعتهم وشفافية نفوسهم مايجلبـــه العطـــاء السمح والإنفاق الحسن من جميل الخصال ومايبعث من السرور عند الإنسان المنفـــق حين ينقذ المحتاج ويعين الضعيف وعند المحسن إليه حين يسد جوعته وحاجته من قـــادر على ذلك، ولذلك تبرز قيمة المآثر النفسية التي نهضت بها الذات المعطية والمحتاجة.

والإيثار قيمة سامية تدفع إلى الاتّحاد والتعاون. فقد خلق الله الإنسان اجتماعيًا بطبيعته، لا يمكنه القيام بأعباء هذه الحياة منفردًا، ولا الحصول علـــى لوازمـــه كلهـــا

---

[٢٠] الدجوي: إتمام فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، ص ١٧٨.

[٢١] سورة الحشر: ٩.

www.mtenback.com

بمفرده، بل لا بدّ له من مشاركة غيره[٢٢]. وهذه المشاركة هي التي عناها الخالق بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[٢٣].

ثم إنَ تقديم الآخرين على الذات وتفضيلهم على النفس، هو غاية نبيلة تؤدي إلى زوال الأنانية وتوثق الروابط بين الأفراد بل بين المجتمعات وبذلك ترتقي قيمة الفرد المتطلّع إلى إقامة العلائق الاجتماعية على أسسٍ سليمة.

وإذا كان القرآن الكريم قد أورد الإيثار بمعناه الإيجابيّ في الآية السابقة التي آثر فيها الأنصار المهاجرين على أنفسهم، فقد أورد في مقابل ذلك الموقف الذي يدعو إلى الإيثار. ولعلّ هذا تجلّى واضحًا في ردّ المؤمنين على فرعون وقد هددهم بالتعذيب، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[٢٤]. فهذه الإجابة لفرعون تدل على أنّ المؤمنين لا يمكن أن يؤثروا الباطل على حساب الحق؛ وهذا ما يعزّز صحّة سلوكهم، ووعيهم العميق لمعنى الإيثار، ولكيفية الإيثار. وهذا الوعي هو الذي يثبّت دعائم المجتمع الأخلاقي المبنيّ على القيم المتينة. وهو كذلك يمكّن أصحابه من ممارسة هذه القيم على وجوهها كلها، الوجه المادي المحسوس والمعنوي المجرد والمغيب المرجو كل ذلك يجلبه الإيثار ويقربه الإحسان.

صور من الإيثار:

مرت معنا صورة من إيثار العرب في الجاهلية وتسامي نفوسهم فلما جاء الإسلام أمر بالإيثار وجعل له معنى آخر غير ذاك الذي كانت العرب تؤثر من أجله، ولعل أمثلة

---

[٢٢] الدجوي: إتمام فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، ص ٨٥.

[٢٣] سورة المائدة: الآية ٢.

[٢٤] سورة طه: الآية ٧٢.

www.mtenback.com

الإيثار الواردة في الأحاديث النبويّة تشير بصورة واضحة إلى أهمية هذه القيمة العظيمة لدى أبناء ذلك المجتمع وما أصابها من تحول ورقي بأغراضها وأهدافها وغاياتها.

ومن أبرز صور الإيثار في الحياة العربية الإسلامية، تلك الصورة التي آثر فيها الأنصار إخوتهم المهاجرين في الإقطاعات التي قام بها النبي عليه السلام. فقد قال أنسٌ رضي الله عنه: أراد النبيّ ﷺ أن يُقطع من البَحَرَيْن، فقالت الأنصار حتّى تُقطِع لإخواننا من المهاجرين مثل الذي تُقْطِعُ لنا[٢٥].

ومن مؤكّدات أهميّة الإيثار في المجتمع العربي الإسلامي جاء قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتىّ يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه»[٢٦]، ذلك لأنه أناط الإيمان الذي هو عمدة العقيدة بالإيثار وحبّ الخير للغير. وبذلك أوجب هذه القيمة الخلقيّة وجعلها في مقدّمة الأهداف الإيجابية التي يمكن أن ترقى بالفرد إلى بناء مقومات المجتمع الصحيح عندما يحب الإنسان أن يكون شركاؤه في الإنسانية مثله في الفضل.

وقد تجلّت مظاهر الإيثار في الحياة الاجتماعية، في مشاهد رائعة فيها من المعاني والفضائل ما لا يتوفَر في أكثر المجتمعات على مر العصور. ولا سيما الإيثار بالنفس عند الفداء والتضحية في سبيل المبادئ والعقائد وقد مثل هذا الملحظ أبو طلحة حين كان يرمي بسهمه بين يدي رسول الله فلما تطاول الرسول ليرى مواقع أسهمه سارع بعرض صدره ليحمي رسول الله من سهام عدوه وهو يردد «نحري دون نحرك يارسول الله»[٢٧].وقد صدق الشاعر حين قال في مثل هذا الفداء والتضحية:

---

[٢٥] البخاري: صحيح البخاري، ترقيم: د. مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، دمشق، (١٩٨٧م)، رقم الحديث (٢٢٤٨).

[٢٦] الترمذي: سنن الترمذي، ترقيم: أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، د.ت. رقم الحديث (٢٥١٥).

[٢٧] ابن حنبل، الإمام الأحمد بن محمد: مسند أحمد، ترقيم: إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩١م. رقم الحديث (١١٦١٣).

www.mtenback.com

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ البَخِيلُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودْ

إن الإيثار من مصادر القيم الأساسية التي تندرج تحت لوائها سائر القيم الأخرى لأنّه يصون القلب من العوارض الزائلة، والرغبة الفانية وهذا ما يورث الهمّة التي يتمخّض عنها الإقدام وغيره من الخلال الحسنة الرفيعة المرتبطة بالاستقامة.

وإذا كان إيثار النبيّ الكريم من الأهداف التي كان يسعى إليها المسلمون الأوائل، فإنّ إيثار نصيبهم منه الناجم عن محبته كان يأسر قلوبهم. ومن أمثلة ذلك ما ورد عن سهل بن سعدٍ الأنصاريّ «أنّ رسول الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه وعن يمينه غلامٌ وعن يساره الأشياخ فقال للغلام أتأذنُ لي أن أعطي هؤلاء فقال لا والله لا أوثر بنصيبي منكَ أحدًا»[٢٨]. إنّ مثل هذا الحبّ نشأ في القلوب المؤمنة التي اطمأنّتَ فصارت تتطلّع إلى نصيبها منه. وكان كلٌّ منها يؤثر ذاته وينافس غيره في الحصول على القسط الأوفر ، ولكن تلك المنافسات كانت منضبطةً في إطارٍ خلقيٍ سامٍ لا يخرجها إلى حدّ الإضرار بالآخر. لقد نهل العرب من معين خلقه التربويّ فاستجابت ضمائرهم نتيجةً لمران نفوسهم؛ مما استوجب الترفّع والإيثار الإيجابيّ الذي استقرّ في داخلهم فأكسبهم السكينة والانبساط المهذّب.

ومن ثمار التهذيب التزام العرب الأوائل بالانقياد لشخصية المربيّ الأول، وإيثاره في كلّ حال فقد نقل عن أبي أيّوب «أنّ رسول الله ﷺ نزل عليه فنزل النبيّ أسفلَ وأبو أيّوبَ في العُلو فانتبه أبو أيّوب ذات ليلة فقال نمشي فوق رأس رسول الله فتحّول فباتوا في جانبٍ فلمّا أصبح ذكر ذلك للنبيّ فقال النبيّ ﷺ السُفْلُ أرفق بي، فقال أبو أيّوبَ لا أعلو سقيفةً أنت تحتها فتحّول أبو أيّوبَ في السّفْلِ والنبيّ في العلّو[٢٩].

---

[٢٨] ابن عبد الله، عبد العزيز: الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب. ص ١١٦.

[٢٩] مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (١٩٨٥م). رقم الحديث (٢٠٥٣).

www.mtenback.com

ومن أمثلة هذا الإيثار المحمود ما نُقل عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: كنّا في غزوة بدر كلُّ ثلاثة منّا على بعير كان عليٌّ وأبو لبابة زميلَيْ رسول الله ﷺ فإذا كان عقبةُ النبيّ ﷺ قالا اركب يارسول الله حتّى نمشيَ عنك فيقول ما أنتما بأقوى على المشي منّي وما أنا بأغنى عن الأجر منكما[٣٠].

نلاحظ في هذه النماذج من الإيثار للنبي الكريم عليه السلام توفُّر الإخلاص في قلوب المسلمين الأوائل، وهذا الإخلاص هو حصيلة الدروس الأخلاقيّة العملية التي تلقّوها على يدي الموجّه الجليل الذي كان يبادلهم الكرم والإيثار بكرم أكبر، وقد اتّضح ذلك من أمرين: الأوّل: عندما أجاب أبا أيّوب قائلاً: السُّفْل أرفق بي ممّا يدلّ على تواضعه وخلقه العظيم، فكانت إجابته تحمل نبرة اللين والرفق والتهذيب الدالّة على نور باطنه وعمارته بالمبادىء السامية. أمّا الأمر الآخر فقد تجلّى في امتناعه عن الركوب عندما آثره صاحباه على نفسيهما وطلبا منه ذلك. وهذا الامتناع ناجم عن إحساسه العميق بالالتزام والمساواة؛ فكان منهما الإيثار وكان منه الشعور بالمسؤوليّة. ومن هنا فقد أفلح في تربية صحابته، وفي غرس أعظم القيم الخلقيّة التي يمكن تثبيتها في النفس وترسيخها في الوجدان وأهمها الإيثار وبناء صرح التعاون الاجتماعي.

ومن أبواب الإيثار التي عرف بها أفراد المجتمع في عهد النبوّة إكرام الضيف. وهنا يمكن أن يتبادر إلى الذهن تساؤل حول إمكانيّة عدّ هذا اللون من الكرم لونًا من الإيثار. ولكن من يتأمّل حوادث الحياة اليوميّة لأولئك الناس يرَ أنّ تلك الحوادث تشهد بصدق الإيثار. ولا أدّل على هذا الأمر من الحديث الذي ورد عن أبي هريرة حين قال: «جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال إنّي مجهودٌ، فأرسل إلى بعض نسائه فلم يجد عندهن شيئًا فقال: من يضيف هذا الليلة رحمه الله، فقام رجلٌ من الأنصار

---

[٣٠] مسند أحمد، رقم الحديث (٣٨٩١) و(٣٩٥٥).

www.mtenback.com

فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته:هل عندك شيء؟ قالت: لا إلاّ قوت صبياني، قال: فعلّليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فاطفئي السراج وأريه أنّا نأكل قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلمّا أصبح غدا على النبيّ ﷺ فقال: قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة[٣١].

لقد ضرب الرجل وزوجته مبلغ الكرم النفسي حين آثرا ضيفهما على أولادهما، ومنشأ الإيثار النفس المهذبة والإرادة المطمئنة التي بلغت درجة عالية من التفوق الخلقي العميق فصار الزهد مع الحاجة هو مقياس الإيثار وميزان الابتلاء حين يقدم حظ غيره على حظ نفسه وبذلك تقلّ المزاحمة والتنافس على العَرَض الفاني ويقلّ بحكم التبعيّة الخصام واللجاج فتنبسط على المعمورة الطمأنينة والأمن والهدوء[٣٢].

ومن صور الإيثار المتجلّية تلك القصة النبيلة التي تصوّر إيثار الأمّ لبناتها الجائعات. فقد ورد عن السيدة عائشة أنّها قالت: «جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتُها ثلاث تمرات فأعطت كلَّ واحدةٍ منهما تمرةً ورفعت إلى فمها تمرة لتأكُلَها فاستطعمَتْها ابنتاها فشقّت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما. قالت: فأعجبني شأنها فذكرْتُ ذلك الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال إنّ الله عزّ رجلّ قد أوجب لها بها الجنّة وأعتقها بها من النار»[٣٣].

---

[٣١] مسند أحمد، رقم الحديث (٢٠٥٤). وقد أورد الراغب الأصفهاني هذه القصة تحت عنوان: «مدح الآثر على نفسه أو أهله»: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء، ج٢، دار مكتبة الحياة، لبنان، د.ت.، ص ٦٥٢.

[٣٢] ابن عبد الله، عبد العزيز: الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، ص١١١.

[٣٣] مسند أحمد، رقم الحديث (٢٤٠٩٠).

www.mtenback.com

هذا الموقف الأخلاقيّ للأمّ المؤثرة لم يوجب لها التقدير الاجتماعيّ فحسب، بل أوجب لها الجزاء الإلهيّ العظيم. وهذا من نتائج القيم العليا في المجتمع العربي. فلم تعد القيمة الأخلاقية مقتصرة على المواقف الاجتماعية، وإنّما تجاوزتها إلى المواقف الدينيّة. وإذا حاولنا تعليل ذلك فإننا نقول إنّ الربط العميق بين المعتقدات الدينيّة والقيم الخلقية هو الذي أدّى إلى تطور الأخلاق. فالشعائر لم تطلب لذاتها، وإنّما لما تورثه في النفس من التهذيب، ولما ينتج عنها من السلوك القويم الذي يقوّم الاعوجاج، ويفتح مسالك الخير والبّر.

وفي مقابل هذا الموقف الإيثاريّ للأمّ تجاه الأبناء، نجد لونًا آخر من الإيثار الذي يفضّل فيه الولد أمّه على ذاته لتطلعه إلى رضاها المنوط برضا الله سبحانه فيروى أنّه قيل لعليّ بن الحسين رحمه الله: إنّك من أبّر الناس، ولست تأكل مع أمّك في صحفة فقال: أكره أن تسبق يدي إلى ما قد سبقت إليه عينُها فأكون قد عققتها[٣٤]. شعور جسد مظهرًا من مظاهر البّر العظيم الذي يتّوج النفس بمحاسن السجايا، فيجعلها مطهّرة مرضيّة لاستئناسها بالسلوك السامي والاختيار الواثق الذي حرّرها من قهر الطباع السلبية.

الإيثار عند العرب:

لقد سمت النفس العربيّة فبلغت غاية الإحسان في الإيثار، حيث استكملت مزايا كمالها الخلقيّ عندما عبّرت عن هذه القيمة الأخلاقيّة خير تعبير. فالجود في ذات الإنسان العربيّ نزعة أصيلة ولكنّه تنامى داخل هذه الذات وازداد عمق الشعور بإيجابيّته فاستحال إلى قيمة عليا شكّلت ذروة التقدّم الأخلاقيّ على مستوى الفرد ثمّ على مستوى البعد الاجتماعيّ المتكامل.

---

[٣٤] المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل، تحقيق: د. محمد أحمد الدالي، م٢، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (١٩٩٢م)، ص ٦٤٥.

www.mtenback.com

فالإنسان العربيّ الذي تشبّعت نفسه بالمبادئ طابَ لبانه الخلقيّ حتى صار ينضح بعبق المواقف الكريمة التي تدل على إنسانيّته المثلى.. ولعلّ حاتمًا الطائي من أكبر الشواهد الأخلاقيّة في التاريخ الحضاريّ للأمّة العربيّة، وكثيرة هي المواقف التي تثبت تفوّقه العميق في الكرم الذي بلغ درجة الإيثار للضيف والأصحاب متناسيًا ذاته ومصالحه[٣٥]:

أَكُفُّ يَدِي عَنْ أَنْ يَنَالَ التِمَاسُها ... أَكُفَّ صِحَابِي حِينَ حَاجَتُنا مَعا

أَبِيتُ هَضِيمَ الكَشْحِ مُضْطَمِرَ الحَشَا ... مِنَ الجُوعِ أَخْشى الذَّمَّ أَنْ أَتَضَلَّعا

فهو يؤثر هؤلاء الصحاب بحظّه من الزاد وينطوي على الجوع كرمًا وصبرًا[٣٦] حتى لا يوصف بخزي الأنانيّة، واستبداد الجشع[٣٧].

وَإِنِّي لأَسْتَحْيِي صِحَابِي أَنْ يَرَوا ... مَكانَ يَدِي في جانِبِ الزَّادِ أَقْرَعا

ولقد استحال هذه الخلق المؤثر لدى حاتم إلى شيمةٍ أهلك ذاته في تكريسها وتمثّلها، ولكن قناعته بجلالة تلك المواقف الخلقيّة في الحياة الاجتماعية هو ما جعله يؤثر الصبر على الخُلُق المهين الذي يحطُّ من قدر المرء ويجرح كرامة الخُلُق[٣٨]:

---

[٣٥] الأعلم الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى. شرح حماسة أبي تمام «تجلّي غرر المعاني عن مثل صور الغواني والتحلّي بالقلائد من جوهر الخرائد في شرح الحماسة». تحقيق وتعليق: د. علي المفضل حمّودان، م٢، ط١، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م). مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبيّ. ص/١٠٠٨. وقد وردت الأبيات في ديوان حاتم الطائي على النحو التالي:

أقصر كفّي أن تنال أكفّهم ... إذا نحن أهوَيْنا وحاجاتنا معا

أبيت خميص البطن مضطَمِرَ الحشى ... حياءً أخافُ الذمّ أن أتضلّعا

[٣٦] المصدر السابق، م٢، ص١٠٠٥.

[٣٧] حاتم الطائي: ديوان حاتم الطائي، دار صادر، دار بيروت، بيروت (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، ص ٦٨.

[٣٨] المصدر السابق، ص ٤٤.

www.mtenback.com

وَقَائِلَةٍ أَهْلَكْـــتَ بِـالجُوْدِ، مَالَنَـا، وَنَفْسَكَ، حَتَّى ضَرَّ نَفْسَك جُودُهـــا
فَقُلْتُ دَعِينِي، إِنَّمَا تِلْـــكَ عَـادَتِي، لِكُـلِّ كَرِيْـمٍ عَـادَةٌ يَسْـــتَعِيدُها

عادة لدى حاتم حميدة وهي صورة للأساس الأخلاقي العميق لـــدى الإنســـان العربيّ الذي عمل طويلاً على خدمة تلك القيم يحفزه الإخلاص المتأصّل في كيانه: ثـــم إن الخصوبة النفسيّة لدى الشاعر شقّت صدر البادية المجدبة، وألانت قسوة الصحراء في سني الضيق والقحط، بما امتلكته من الجود العميق الذي هذّب جوهرها، وأضاء معدنُها فصارت محل ثقة صاحبها الذي أحسن ظنّه بقدرتها على العطاء في كلّ آن في وقـــت الحاجة وفي وقت السعة، في وقت الخصب وفي وقت القحط، وهكذا صار يستشـــير نفسه ويعمل بهديها الكريم الذي يحثه على الإيثار، وإن كانت الشدّة تقتضـــي غـــير ذلك.

و لم يكن حاتمًا في خلقه وبذله إلا مثلاً للخلق المحمود الذي جُبلت عليه نفـــس هذا الشاعر العربيّ الكريم الذي ضرب أعظم الأمثلة في تناسي الذات من أجل إيثـــار الآخر ضيفًا أو صاحبًا أو قريبًا.

وقد بين لنا الشعر فلسفة العربي عندما ينفق وعندما يجود بماله وأظهر السبب في ذلك وقد دافع الشعراء عن فلسفة العطاء والإنفاق حين رأوا أن الإنسان يجمع المـــال لينال نفعه وخيره، ويستمتع به، أو يجود على المحتاجين فيكسب الثناء الحسن، أما إذا لم يفعل فإن المال سيصير إلى غيره وهو محروم منه وهذه الأبيات دفاع عن المبدأ الذي سنّه العرب وأخذوا به[٣٩]:

أَهِنْ فِي الَّذي تَهْوى التِّـــلادَ فَإِنَّـــه يَكُونُ إِذا ما مُـــتَّ نَهْبًـــا مُقَسَّـــما

---

[٣٩] البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد: كتاب الحماسة، رواية أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بـــابن أبي خالد الأحول. نقل النسخة وضبط الشكل لويس شيخو، بيروت، (١٩١٠م)، ص٢٣٧.

www.mtenback.com

وَلا تَشْقَيَنْ فيه فَيَسْعَدَ وارِثٌ ... بِهِ حِينَ تُحْشى أَغْبَرَ الجَوْفِ مُظْلِمَا

يُرادُ لَهُ مالٌ إلى لُبِّ مالِهِ ... وَقَدْ صِرْتَ في خَطٍّ مِنَ الأَرْضِ أَعْظَما

قَلِيلاً بِهِ ما يَحْمَدَنَّكَ وارِثٌ ... إذا ساقَ مِمَّا كُنْتَ تَجْمَعُ مَغْنَمَا

فهو قد آثر ذاته على الوارث، لأنّه عندما يكون ممتلكًا للثروة يجود، ويحصد طيب الذكر. ويؤثر نفسه على وارثه.

ومن النماذج الأخلاقيّة الرفيعة التي يعتزّ بها سجلّ تاريخ العرب شخصيّة «عروة بن الورد» الشاعر الصعلوك الذي عرفته البادية شهمًا، جوادًا، كريمًا مؤثرًا للآخرين ومضحّيًا في سبيل ذلك بمنفعته الذاتيّة:

فالنظرة الخلقية المتفوّقة لديه هي أساس مذهبه الاجتماعيّ الداعي إلى العدالة، الذي عبّر عنه بصورةٍ أوّليّة فطريّة عندما كان يغير على الأغنياء ليقسّم بعد ذلك غنائمه على الفقراء والمعوزين. فكان موقفه معارضًا للجشع وللأنانية ولاحتكار الخيرات وحبسها عن الآخرين ومنعهم من الإفادة منها، وبذلك كرّس هذه التوجّه الأخلاقيّ الذي سار باتجاه الإيثار والنظر في مصالح غيره وقد عبر عن تجربة وخبرة طويلة أدت به إلى القناعة في مشاركة الآخرين حاجتهم وغناهم[٤٠]:

وَرُبَّتَ شَبْعَةٍ آثَرْتُ فِيها ... يَدًا، جاءَتْ تُغَيِّرُ، لَهَا هَتِيتُ

لقد نما حبُّ الآخرين عند عروة ليتحوّل إلى موقفٍ أخلاقيٍّ متكاملٍ يبرز كرم نفسه المعطاء التي ظلّت سحبها تهمي بالخير وتحنو على الأضياف وتجود ما وسعها لتدرك حاجات الآخرين ومتطلبات نفوسهم[٤١]:

يُرِيحُ عَلَيَّ اللَّيْلُ أَضْيافَ ماجِدٍ ... كَرِيمٍ، وَمالِي سارِحًا مالُ مُقْتِرِ

---

(٤٠) عروة بن الورد: ديوان عروة بن الورد، دار صادر، دار بيروت، بيروت، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ص٢٠.

(٤١) المصدر السابق، ص ٣٨.

www.mtenback.com

وإذا كان عروة قد جسّد مثال الإنسان الجواد الذي يعطي ولو على قلّة: فإن «طرفة بن العبد» قد عبّر عن ذلك في قوله[٤٢]:

وَالمَجْدُ نُنْمِيهِ وَنُتْلِدُهُ ... وَالْحَمْدُ فِي الأَكْفَاءِ نَدَّخِرُهْ

نَعْفُو كَمَا تَعْفُو الجِيَادُ عَلَى الـ ... ـعِلّاتِ والمخْذُولُ لا نَذَرُه

فهو يفخر بمجده وبمجد قومه لأنّهم يغدقون العطاء على ما ينوبهم من قلة مالٍ وعسرةٍ كما تزداد الخيل الجياد جريًا على ماينوبها من مشقّة وتعب [٤٣].

إنّ هذه الصورة الرائعة تبرز القيم الشريفة لهؤلاء القوم الأجواد الذين استحقّوا الحمد، وسمت هممهم إلى مستوى الثناء. فلم تكن العسرة لتمنعهم من العطاء، بل لقد زادتهم كرمًا وفضلاً كالخيل الكريمة التي تنشط على الرغم من المشقّة التي تنالها. ويحضرنا هنا قول «دريد بن الصمّة» الذي يصف فيه حال المؤثِر الذي مسّه الجهد فزاده سماحًا وكرمًا[٤٤]:

تَرَاهُ خَمِيصَ البَطْنِ وَالزَّادُ حَاضِرٌ ... عَتِيدٌ، وَيَغْدُو فِي القَمِيصِ المُقَدَّدِ

وَإِنْ مَسَّهُ الإِقْواءُ وَالْجَهْدُ زَادَهُ ... سَمَاحًا وَإِتْلافًا، لِما كانَ فِي اليَدِ

فهذا الإنسان المؤثِر الذي يثني عليه ابن الصمّة، ليس ضمرُ بطنه لقلّة وجد، ولكنّه يؤثر بقوته وانتظاره به الضيف ومن يعتفيه[٤٥]. وهو إذا قلّ ماله كان أجود بما يملك لأنّه يجري على عادته من الجود فلا يبقي شيئًا[٤٦].

---

[٤٢] طرفة بن العبد: ديوان طرفة بن العبد. تحقيق: د. علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصريّة. القاهرة (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص ٩٩.

[٤٣] المصدر السابق، ص ٩٩.

[٤٤] الشنتمري: شرح حماسة أبي تمّام، م٢، ص ٨٩٨.

[٤٥] المرجع السابق نفسه.

[٤٦] المرجع السابق، م٢، ص٨٩٩.

www.mtenback.com

وطرفة يقرن هذا الإيثار بنصرة المخذول الذي لا ناصر له. وهذا ما يوضح الارتباط الخلقيّ العميق بين مختلف السجايا الحميدة التي تتحلّى بها شخصيّة الإنسان العربيّ، و لم يكن ما مرّ تاريخ أفراد أو فئة ولكنه خلق العرب في الماضي وهو ما يتخلق به العرب في كل زمان وفي كل مكان، و لم تكن الأبيات التي مرت والأشعار التي ذكرت إلا ذكرى لمن ينتمي إلى هذه الطبيعة وهذا الخلق الكريم في الحاضر كما كان في الماضي.

ويعمّق الموقف الأخلاقي العربي عندما يحدّثنا عن إخلاصه المطلق لصاحبه وقريبه وإيثاره له وإن كانت نفس ذلك الآخر تنطوي على كراهيته وعداوته فهو متسامح متجاوز للأخطاء[٤٧]:

وأَسْتَنْقِذُ المَوْلَى مِنَ الأَمْرِ بَعْدَمَا ... يَزِلُّ كَمَا زَلَّ البَعِيرُ عَنِ الدَّحْضِ
وَأَمْنَحُهُ مالِي وَعِرْضِي وَنُصْرَتِي ... وَإِنْ كَانَ مَحْنِيَّ الضُّلُوعِ عَلَى بُغْضِي
وَيَغْمُرُهُ حِلْمِي وَلَوْ شِئْتُ نَالَهُ ... عَوَاقِبُ تَبْرِي اللَّحْمَ مِنْ كَلِمٍ مَضِّ

إذن العطاء لم يكن مكافأة على معروف ولا مجاملة على صنيع، ولكنه تعبير عن موقف إنساني بحت ورأي في الحياة يمارسه العربي ويدعو إليه، بغض النظر عن العلاقة التي تربط بين السماحة بيده ومن ماله وبين تقبل الآخر لها وامتنانه منها أو اعراضه عنها، وقد نظر المقنع الكندي هذه النظرة الصائبة حين وصف إنفاقه وما يبذل مع تعليله لأسباب البذل والإنفاق[٤٨]:

لَهُم جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنىً ... وإِنْ قَلَّ مالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَادَامَ نَازِلاً ... وَما شِيمَةٌ لِي غَيْرُها تُشْبِهُ العَبْدَا

---

[٤٧] طرفة: ديوانه، ص ١٩٩.

[٤٨] المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمّد بن الحسن: شرح ديوان الحماسة، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) ج٣، ص ١١٨٠.

www.mtenback.com

إنّ كل المواقف السلبيّة من قومه تجاهه لم تثن عزمه عن إيثارهم وعن إرادة الخير لهم. وهذا السلوك هو الذي بوّأه منزلة السيادة فهم، إذ أن ترك الحقد من سمات رئيس القوم الذي يؤثر مصلحتهم على مصلحته أو نفعه.

ويرى عمرو بن معديكرب مقارنة مقبولة بين الحلم وبين الإنفاق والإيثار حين يمدح نفسه بالمقابلة اللطيفة، فحلمه يبقى بعد حلوم القوم أما زاده فيفنى قبل زادهم[٤٩]:

وَيَبْقَى بَعْدَ حِلْمِ القَوْمِ حِلْمِي وَيَفْنَى قَبْلَ زَادِ الْقَوْمِ زَادِي

وللإيثار والسماحة شروط، أهمها أن تكون عن قلة وعن حاجة لما يعطى أما إذا أعطى من أطراف ما يملك فذلك كرم ولكنه غير الإيثار وغير السماحة والمقنع الكندي يقول[٥٠]:

لَيْسَ الْعَطَاءُ مِنَ الفُضُولِ سَمَاحَةً حَتَّى تَجُودَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيلُ

فالبذل ممّا يفضل عن حاجة المرء ليس سماحةً، لكنّ الجود أن يعطي من قليله وينفق من كفايته [٥١]. وهذا هو المعنى الحقيقي للإيثار الذي هو عطاء على العلاّت[٥٢]:

أَخٌ لَكَ لا تَرَاه الدَّهْرَ إلاّ عَلَى العِلاَّتِ بَسَّامًا جَوَادَا

أَخٌ لَكَ لَيْسَ خُلَّتُهُ بِمَذْقٍ إِذَا مَاعَادَ فَقْرُ أَخِيْهِ عَادَا

---

[٤٩] عمرو بن معد يكرب: شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي، جمع وتحقيق مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية، دمشق، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص ٩٥.

[٥٠] المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، ج٤، ص ١٧٣٤.

[٥١] المرجع السابق، ج٤، ص ١٧٣٥.

[٥٢] الأعلم الشنتمري: شرح حماسة أبي تمّام، م٢، ص ٩٠٠.

www.mtenback.com

والعطاء على العلاّت هو عطاء النفس التي تتّسم بجود الضمير وخصوبة الوجدان المرتبط بصفاء المودّة والبذل غير المنقطع في سبيل الحفاظ على الآخر، أخًا أو صاحبًا أو جارًا أو ضيفًا.

وهذا الإيثار يرتكز على قناعة عميقة بأنّ الرزق يأتي، وأنّ وفرته ليست مرهونةً بالحرص أو الإمساك عن الجود، ولا يمكن أن يفهم من هذا إلا حال واحدة هي أن العرب جبلوا على الإيثار وأحبوا المؤثرين على أنفسهم فأحبهم الناس[٥٣]:

وَزادٍ أَكَلْناهُ وَلَمْ نَنتَظِرْ بِهِ غَدًا، إِنّ بُخْلَ المَرْءِ مِنْ أَسْوَأِ الفِعْلِ

لقد آثرنا بطعامنا الضيف والجار، وإن كان قوتًا لما بعد يومنا، كرمًا وثقةً بأنّ الرزق يأتينا، وهو كقول النابغة[٥٤]:

وَلَسْتُ بِخَابِئٍ أَبَدًا طَعَامًا حِذارَ غَدٍ، لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

فالبذل وإيثار الآخرين بالعطاء لا ينقص رزقًا، ولايقلّل شأن قوم ذوي جودٍ وفضلٍ إن سبّب لهم عسرة، وفي ذلك يقول حُطائط أخو الاسود بن يَعْفُر[٥٥]:

تَقُولُ ابْنَةُ العَبَّابِ رُهْمٍ: حَرَبْتَنا حُطَائِطُ لَمْ تَتْرُكْ لِنَفْسِكَ مَقْعَدا

إذا ما أَفَدْنا صِرْمَةً بَعْدَ هَجْمَةٍ تَكُونُ عَلَيْها كَابْنِ أُمِّكَ أَسْوَدا

فَقُلْتُ وَلَمْ أَعْيَ الجَوابَ تَبَيَّني أَكَانَ الهُزَالُ حَتْفَ زَيْدٍ وَأَرْبَدا

أَرِيني جَوادًا ماتَ هُزْلاً لَعَلَّني أَرى ما تَرَيْنَ أَوْ بَخِيلاً مُخَلَّدا

وقريب من هذا المعنى قول حسّان بن حنظلة الطائي[٥٦]:

---

[٥٣] الأعلم الشنتمري: شرح حماسة أبي تمام، م٢، ص ٩٩١.

[٥٤] المرجع السابق، م٢، ص٩٩١.

[٥٥] المرجع السابق، م٢، ص٨٩٦.

[٥٦] المصدر السابق نفسه.

www.mtenback.com

تِلْكَ ٱبْنَةُ العَـــدَوِيِّ قَـالَتْ بـاطِلاً أَزْرى بِقَوْمِـكَ قِلَّـــةُ الأَمْـــوالِ
إِنَّا، لَعَمْـــرُ أَبِيـكِ يَحْمَـدُ ضَيْفُنـا وَيَسُـودُ مُقْتِرُنَـا عَلَـى الإِقْـلالِ

فمقتر القوم يسود ببذله وسماحته، وإن كان قليل المال[٥٧] لأنّ الإيثـار مدعـاةٌ للسيادة، وليس مدعاةً للذُّلِّ أو التحقير، وقلة المال لا تمنع العربي من الجود والعطـاء ومشاركة الآخرين فضائل الأعمال وأكبر الفضائل فضيلة الكرم والإنفاق وإذا كـان المنفق معسراً تضاعف الثناء عليه والحمد له. و قال يزيد بن الطثريّة القشيري معبّرًا عن هذه الحال الجليلة[٥٨]:

إِذا أَرْسَلُوني عِنْـدَ تَعْذِيـرِ حاجَـةٍ أُمارِسُ فيها، كُنْتُ نِعْـمَ الْمُمَـارِسُ
وَنَفْعِـي نَفْـعُ المُوسِـرِينَ، وَإِنَّمَـا سَوامِي سَـوامُ المُقْتِرِينَ المَفَـالِسِ

ويرد معنى يزيد في البيت التالي الذي يقدر القليل إذا كان مما يستطيع المنفـق ويرى أنه يعدل الكثير الذي ينفقه الغني فيقول[٥٩]:

جُهْـدُ المُقِـلِّ إِذَا أَعْطَـاكَ نائِلَـهُ وَمُكْثِرٌ فِي الغِنى سِيَّان فِـي الجُـودِ

إنّ تلك المواقف الأخلاقيّة المتأصلة في الإنسان العربيّ جعلته يربّي نفسه علـى العطاء مهما كان حاله. ويربي غيره بما يقوم من مثل عملي يقتدي به ويتخذ حجـة على صحة المبادئ العربية الخالدة.

على هذا النحو من الخلق اتّجهت الذات العربيّة إلى الإيثار، يُظلُّها الحنان المرتبط بوجدان الصحراء، التي حررت هذه النصيحة من الشروط المنطقية المحتومة لتُقَدِّم كـرم الضمير دون حساب.. فالأخ عون للأخ دون مقابل، والقريب متفانٍ من أجل القريب

---

(٥٧) الأعلم الشنتمري: شرح حماسة أبي تمام، م٢، ص٩٨٦.
(٥٨) المرجع السابق، م٢، ص٩٥٠.
(٥٩) المرجع السابق، م٢، ص٩٧١.

www.mtenback.com

دون مقابل، والمضيف عبدٌ للضيف دون مقابل، والصعلوك إذا نال الغنى مؤثرٌ للفقير المحتاج دون مقابل[٦٠]:

إِذَا قُلْتُ قَدْ جاءَ الغِنى حالَ دُونَه أَبُوصِبْيَةٍ يَشْكُو المفاقِرَ أَعْجَفُ

لَه خَلَّةٌ لاَ يَدْخُلُ الحَقُّ دُونَها كَرِيمٌ أَصابَتْهُ الحَوادِثُ تَجْرِفُ

وإذا استغنى آثر بغناه الفقير المحتاج ذا العيال، وهو أبدًا طالبٌ للغنى ليقيم هذه الحال[٦١]. وهو كذلك يرى أن الحقّ يدعوه إلى سدّ تلك الخلّة والحاجة، يريد أنّه من عشيرته فالحقّ يدعو إلى صِلَة رَحمه [٦٢].

ويرعى حرمة الصلة، فيبادر إلى إنقاذه بإيثاره بماله المكتسب. ويسعى إلى كسب الأرزاق الوفيرة لكي يؤمّن حاجات ذوي القربى من أبناء قومه.

وقد ينفعل المرء بطيب الثناء الذي يتلقّاه من القوم عقب موقفه الكريم الذي يؤثِر به ضيفه، فيكون لذلك أكبر الأثر في تمرينه على الإتيان بمثل ذلك. يقول المثلّم بن رباح بن ظالم المرّي[٦٣]:

بَكَرَ العَوَاذِلُ بِالسَّوَادِ يَلُمْنَنِي جَهْلاً، يَقُلْنَ أَلاَ تَرَى مَا تَصْنَعُ

أَفْنَيْتَ مَالَكَ فِي السَّفاه، وَإِنَّمَا أَمْرُ السَّفَاهَةِ مَا أَمَرْتَكَ أَجْمَعُ

إِنِّي مُقَسِّمُ مَا مَلَكْتُ فَجَاعِلٌ أَجْرًا لآخِرَةٍ وَدُنْيَا تَنْفَعُ

لم تكن الرغبة في الثناء هي الدافع الأوحد الذي يحرّك وجدان المرء باتّجاه الإيثار، بل كان لميول إنسانية أعظم فعلها في ذاته، وكانت من موجبات إيثاره وعدم استئثاره. ولعلّ إرادة الخير للأخ هي من أقوى تلك البواعث الإيجابيّة وهنا نذكر قصّة

---

[٦٠] الأعلم الشنتمري، شرح حماسة أبي تمّام، م٢، ص٩٤٧.

[٦١] المرجع السابق نفسه.

[٦٢] المرجع السابق نفسه.

[٦٣] المرجع السابق، م٢، ص١٠٠٧.

www.mtenback.com

عمرو بن سعيد الأشدق، وكان قد جلس إليه رجل من كبار أهل المدينة وعليه جبّة، فنظر عمرو إلى كُمٍّ قميصه قد أَخْلَقَ تحت الجُبَّة، فلمّا انصرف إلى منزله بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب، فمدحه قائلاً[٦٤]:

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيّتِي ... أَيَادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ

فَتًى غَيْرُ مَحْجُوبِ الغِنَى عَنْ صَدِيْقِهِ ... وَلاَ مُظْهِرُ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ

فهو لا يستأثر عليه بماله، ولكنّه يواسيه فيه[٦٥]، لأنّه يدرك أنّ الاستئثار في هذه الحالة أمر غير محمود، وإنّما هو مدعاةٌ للذمّ، وحطٌّ من قدْرِ المرء وكرامته. ومن هنا فإنّ حاجة صديقه تكون قذى عينيه حتّى يتمكّن من جلائها[٦٦]:

رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا ... فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتِ

وإذا كانت حاجة الصديق كذلك: فإنّ حاجة الضيف كانت أولى بالعناية والرعاية، وكان البيت وما فيه يتحوّل إلى ملكيّته حتّى تقرّ عينه ويرتاح خاطره[٦٧]:

لِحَافِي لِحَافُ الضَّيْفِ وَالبَيْتُ بَيْتُهُ ... وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ

أُحَدِّثُهُ إِنَّ الْحَدِيْثَ مِنَ القِرَى ... وَتَكْلأُ عَيْنِي عَيْنَهُ حِينَ يَهْجَعُ

إن مثل هذا النظر في حاجة الضيف يعدُّ من أرقى أنواع السلوك التي يمكن ممارستها في الحياة الإنسانيّة، لأنّه لم يعد مجرد إكرامٍ للآخر، وإنّما تحوّل إلى تفضيل الآخر على الذات، وإيثاره بالملكيّة، مع انشغالٍ كاملٍ بشؤونه ومواساته والسهر على راحته.

---

[٦٤] الأعلم الشنتمري: شرح حماسة أبي تمام، م٢، ص٨٨٢.

[٦٥] المصدر السابق، م٢، ص٨٨٣.

[٦٦] المصدر السابق، م٢، ص٨٨٣.

[٦٧] المصدر السابق، ص١٠٠٩.

www.mtenback.com

إن الاعتقاد بفضل الإيثار جعل العرب تمجّد تلك المواقف، وتعدّ ذلك من أعظم القيم، حتّى قال أحدهم: «من أفضل المكارم: عفو المقتدر، وجود المفتقر»[٦٨]. فربطوا بين العفو عند المقدرة والعطاء عند الحاجة وكلا الحالين تفضل وإيثارٌ. وقد عبّر عبيد الله بن عبدالله بن طاهر عن هذه القيمة السامية خير تعبير حين قال[٦٩]:

أَبى دَهْرُنَا إِسْعَافَنا فِي نُفوسِنا ... فَأَسْعَفَنا فِيمَنْ نُحِبُّ وَنُكْرِمُ

فَقُلْتُ لَهُ: نَعْمَاكَ فِيهِمْ أَتمَّهَا ... وَدَعْ أَمْرَنَا إِنَّ المُهِمَّ المُقَدَّمُ

فقد آثر أحبّته على نفسه وأراد لهم الخير وإن أبى دهره أن يجود عليه به وهو يطلب منه أن يُنعمَ عليهم بإحسانه لأنّه يرى أنّهم أولى من نفسه بالعناية والرعاية.

ولعلّ الجود بالنفس من أشدّ الأمور ارتباطاً بجوهر الإيثار عند العرب. وعمق الارتباط بين هاتين القيمتين يجعلنا نقف عنده بتأنٍ لنتبيّن طبيعة هذه العلاقة التلاحميّة الوطيدة. فإذا كان الإيثار غايةً في العطاء مع مسيس الحاجة، فإنّ الجود بالنفس يتوّج هذا المعنى ببعدٍ تقف دونه معاني الجود وترتدّ عاجزةً أمام جلاله العظيم. ويحسن أن نذكر قول الشاعر العباسيّ عليّ بن الجهم[٧٠]:

طَلَبْتُ هَدِيّةً لَكَ باحْتِيالِي ... عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَسّي وَنَسّي

فَلَمّا لَمْ أَجِدْ شَيْئًا نَفِيسًا ... يَكُونُ هَدِيَّةً أَهْدَيْتُ نَفْسِي

لقد قدّم نفسه هديّة ودّه ولم يضنّ بها على صاحبه على ما كان به من جهد وحاجة، لأنّ إخلاص وجدانه صغّر في نفسه هذا الأمر.

---

[٦٨] الثعالبي، أبو منصور: العقد النفيس ونزهة الجليس. تحقيق: قسم التحقيق بدار الصحابة للتراث بطنطا. ط١، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص٤٦.

[٦٩] العسكري، أبو هلال: ديوان المعاني، السفر الأوّل، ص ١٤٧.

[٧٠] المصدر السابق نفسه.

www.mtenback.com

وبذل النفس يقتضي أن يكون المرء في غاية السمو النفسيّ الذي ينهض بـــه إلى المواقف الجليلة، ومن يبذل نفسه في حاجة أخيه فإنّه يستحق رتبة المحســن المتفضّــل. وإذا بلغ هذه الدرجة الإحسانيّة فاضت ذاته بمعطيات الخلق الرفيع.

هذا اللون من البذل يعكس طبيعة الإيثار بأدقّ معانيه، لما يحمله من تضحية ذاتيّة، وتفانٍ مطلق في سبيل إسعاد الآخر. يقول «الطباطبائي» معبّرًا عن عظمة المؤثر[٧١]:

وَأَيْنَ الغَمامُ الجَونُ مِنْ فَيْضِ جُــودِهِ ... وَإِنْ جادَ شُؤْبُوبُ الغَمَــامِ وَأَغْدَقَــا

وَلَيْسَ بِمَأْمُونٍ عَلَــى بــذْلِ نَفْسِــهِ ... إِذَا ماعِنانُ البَــذْلِ لِلْوَفْــدِ أُطْلِقَــا

تَجَمَّعَ فِيهِ الفَضْــلُ وَالبَــذْلُ خِلْقَــةً ... وَكَمْ مُدَّعٍ بِــالفَضْلِ جَهْــلاً تَمَلُّقَــا

لقد أثنى شعراء العرب على المؤثرين الذين وهبوا ذواتهم، لا أموالهم فحســب ضاربين بذلك أعظم الأمثلة في الحياة الإنسانيّة. كما اهتمّ الأدباء بما ورد من أخبــارهم وقصصهم التي تترك في النفس أطيب الأثر، وفي الوجدان أبلغ العبر.

لقد تعمّقت معاني الإيثار هذه عبر الزمن، وتأصّلت في نفس الإنسان العربــيّ فصارت جزءًا أساسيًّا من عرفه، بل جزءًا أساسيًا من عقيدته وأخلاقه.

فتقديم حاجة الآخر على الذات وإيثاره غدا من القواعد الأخلاقية الأساســيّة عند العرب. وكلمّا تغلغلت المعاني الإنسانيّة في نفس المرء، رقّ إحساســه بحاجــات الناس، وشعوره بآلامهم واندفع في طريق الخير بكلّ قواه يعمل جاهدًا من أجل إيصاله إليهم، ومضى يقضي حوائج المحتاجين ويخفّف من آلام المصابين ويكفكــف دمــوع المحزونين ويبعث الأمل الباسم في نفوس البائسين، وهو يجد في هذا لذّةً نفســيّةً ممتعــةً ومن زوايا نفسه الخيّرة تنبثق فضيلة الإيثار، ثمّ لا تزال تنمو فيه رويدًا رويــدًا حتّــى تصبح من أبرز صفاته التي يعرف بها في الناس حيث ينكر ذاته ويؤثر الآخرين بالخــير،

[٧١] الطباطبائي: ديوان الطباطبائي، مطبعة العرفان صيداء، (١٣٣٢هـ)، ص ١٩١.

www.mtenback.com

ويعمل ما وسعه العمل في سبيل إسعاد الآخرين مؤمنًا بالحكمة المأثورة: «ما استحقّ أن يولد من عاش لنفسه فقط»[٧٢].

حُوشِيتَ ما قِيَمُ الرِّجَالِ إذا ارْتَمَى ... مِنْهَا الضَّمِيرُ وَصَوَّحَ الإِيثَارُ[٧٣]

فالحياة بدون قيم جليلة تفقد قيمتها، والإنسان الفرد لا يمكن أن تتزسّخ الأبعاد المعنويّة الإيجابيّة لذاته إلاّ في إطار المجموع العام المحيط به. بل إنّ بعض الشعراء يدعو الإنسان إلى التفاني التامّ في سبيل المصلحة الجماعيّة. يقول الجواهري[٧٤]:

وَالمَجْدُ أَنْ تُهْدِي حَيَاتَك كُلَّهَا ... لِلنَّاسِ لا بَرَمٌ وَلا إِقْتَارُ

ومن هذا المنطلق يرى شاعرٌ عربيٌّ آخر أنّ نيل المجد مرهونٌ بالإيثار والتضحية من أجل الآخرين بالنفس أو بالمال.. يقول في ذلك[٧٥]:

فَإِنَّ المَجْدَ، أَوَّلُهُ وُعُورٌ ... وَمَصْدَرُ غِبِّهِ كَرَمٌ، وَخَيرُ

وَإِنَّكَ لَنْ تَنَالَ الْمَجْدَ، حَتَّى ... تَجُوْدَ، بِمَا يَضِنُّ بِهِ الضَّمِيرُ

بِنَفْسِكَ، أَوْ بِمَالِكَ، فِي أُمُورٍ ... يَهَابُ رُكُوبَهَا الوَرِعُ الدَّثُورُ

على مثل ذلك النحو تقوى الروابط الاجتماعيّة، ويفوز الصاحب بثقة صاحبه لأنّ حقيقة الإيثار هي أن يرعى الصاحب في الصحبة حقّ صاحبه، ويتجاوز عن نصيبه، ويتجشّم التعب من أجل راحة صاحبه. وهو كذلك يدفع عنه الأذى بكلّ ما أوتي من الإمكانات الماديّة والمعنويّة[٧٦]:

---

[٧٢] عسّاف، أحمد محمّد: قبسات من حياة الرسول، ص١٧٢.

[٧٣] الجواهري، محمد مهدي: ديوان الجواهري، دار العودة، بيروت، م٣، ص٥٦.

[٧٤] المصدر السابق نفسه.

[٧٥] الأخفش الأصغر: كتاب الاختيارين، ص٤٢٠.

[٧٦] المقّري، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ج٥، ص٥٥٩.

www.mtenback.com

أَخوكَ الَّذي تُلْفيهِ في كُـــلِّ مُعْضِـــلٍ يُدَافِعُ عَنْكَ الُّسوْءَ بِالمالِ والعِـــرْضِ

هذا التفاني من أجل مصلحة الآخرين غدا مفخرةً للمرء بين قومه، وصار محـــلَّ الثناء والحمد لأنّه قدّم الخير العامَ على الخير الذاتي المنوط بالفرد حصرًا. يقول الـــبزم في مدح «شكيب أرسلان»[٧٧]:

وَحَمَلْتَ مِنْ أَعْباءِ قَوْمِكَ مَا وَنَـــتْ عَنْـــهُ القُـــرُومُ، وَفُقْـــتَ بِالإِيثَـــارِ

تَرْعَى الْكَفَافَ ذُرَى العَفَافِ مُجَـــامِلاً حَـــالَيْكَ فِـــي الإِعْسَـــارِ وَالإِيْسَـــارِ

ولما كان الإيثار من المحامد العظيمة التي نالت مكانة كبرى بين العـــرب، راح الشعراء يفخرون بهذه الخصلة الأخلاقيّة الشريفة ويربطونها بالتقى والمواساة.

وكثيرةٌ هي الأخبار التي تحدّثت عن أجواد العرب الذين كانوا يبيتـــون علـــى الطوى ليطعموا ضيفًا جائعًا أو سائلاً عابرًا. فينفقون على الرغم من قلّة ذات اليد، وفي هذا الأجر العظيم، والمنزلة الرفيعة، أن ينفق المنفق مع الحاجة الملحّة[٧٨].

وإذا نحن تصفّحنا أوراق أدبنا العربيّ طالعتنا معانٍ مستجدّة لهـــذه القيمـــة تندرج في ثنايا المضمون العام الدالّ عليها. فهذا ابن سناء الملك يحدّثنا عن الاختبار في الإيثار، أي اختبار النفس التي تصطفي من المأثرات وفق تدرّجاتها في النبل والفضـــل. يقول في هذا المعنى[٧٩]:

وَنَفْـــسٌ تُنَـــافِسُ فِـــي المَـــأْثُرَاتِ وَتُؤْثِـــرُ مِنْهَـــا الَّـــذِي يُؤْثَـــرُ

---

[٧٧] البزم: ديوان البزم، شرح سليم الزركلـــي، عدنـــان مـــردم بـــك، المطبعـــة الهاشميـــة بدمشـــق، (١٣٨١هـــ/١٩٦٢م)، ج١، ص١٥٤.

[٧٨] عبّاس، فضل حسن: حماسيّات مختارة في تهذيب النفس الأمّارة، دار البشـــير، عمّـــان، الأردن، ط١، (١٤١٠هـــ/١٩٩٠م)، ص٤٠.

[٧٩] ابن سناء الملك: ديوان ابن سناء الملك، ط١ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكـــن، الهند. مراجعة: د. محمد عبدالحقّ، ص ٣٠٧.

www.mtenback.com

وقد يؤثر المرء أمرًا ولكن يخالفه إيثار دهره لما هو عكس الرغبة التي اتّجه إليها مما يولّد الإحساس بالمرارة والألم، وهذا ما جعل الشاعر يقول[٨٠]:

آثَرْتُ دَهْرِي أَنْ يَبْقَى لِـــيَ الأَبَـــدًا فَكَانَ إِيثارُ دَهْـــرِي غَـــيْرَ إِيْثَـــارِي

ومن المعاني المستحدثة لدى ابن سناء الملك إيثار لونٍ من الموت ينقل المـــرء إلى مراتب الخلود، وقد برز هذا المعنى عندما اتّجه إلى أحد ممدوحيه قائلاً[٨١]:

فَمَا أَنْتَ كَالأَمْوَاتِ بَلْ أَنْتَ نـــاظِرٌ إِلى رَبِّهِ مَا النَّاسُ فِي المَـــوْتِ أَنْظَـــارُ

حُسِدْتَ عَلى المَوْتِ الَّذِي عِشْتَ بَعْدَهُ فَجَاءَ مِنَ الإِكْرَاهِ فِي المَـــوْتِ إِيثَـــارُ

ويرى «ابن الرومي» أنّ تفاوت الدرجات الأخلاقيّة بـــين النـــاس يعـــود إلى اختلاف توجّهاتهم، فمنهم من يؤثر الخير ويسلك سبيله، ومنهم من يؤثـــر البـــاطل فتمتلئ نفسه بالحقد وتقوده إلى الأوضاع الذميمة[٨٢]:

شَهِدَ اتِّفاقُ النَّاسِ طُـــرًّا فِي الهَـــوى وَتَفَـــاوُتُ الأَبْـــرَارِ وَالفُجَّـــارِ

أَنَّ الجَمِيْـــعَ عَلَـــى طِبَـــاعٍ وَاحِـــدٍ وَبِمَـــا يَـــرَوْنَ تَفَـــاضُلُ الأَطْـــوَارِ

فَمَتَى رَأَيْـــتَ حَمِيْدَهُـــمْ وَذَمِيْمَهُـــمْ فَبِفَضْـــلِ إِيْثَـــارٍ عَلَـــى إِيْثَـــارِ

لقد كرّست قيمة الإيثار عند العرب أجلّ المعاني الخلقية المتمثلة بالتضحية والفداء من أجل رعاية الآخرين والتفاني في إرادة الخير له. فكانت بذلك من أسمى القيم إن لم تكن أسماها على الإطلاق. فيها برز إكرام الضيف ونصرة المستضعف وروح المؤاخاة الصادقة، وقد يحار التعبير في الإعراب عن جوهر هذه القيمة النافية لأنانيّة الـــذات لأنّ

---

[٨٠] ابن سناء الملك: ديوانه ص ٣١٦.

[٨١] المرجع السابق، ص ٣٢٦.

[٨٢] ابن الرومي: ديوانه، تحقيق: د. حسين نصّار، دار الكتب (١٩٨١م)، ج٣، ص ٩٣١.

www.mtenback.com

المعاني الإنسانية المودعة فيها تحرّض النفس باتجّاه المكرمات وترفع المرء إلى مستوى المشاركة الإنسانيّة.

جدوى الإيثار وآثاره في الحياة الاجتماعية:

جعل الله الإنسان أشرف المخلوقات، وسخّر له ما في الكون كله لينتفع بذلك، ويحّس بشرف وجوده. وظاهرٌ أنّه لا يتأتّى للمجتمع الانتفاع بذلك إلاّ إذا كان أفراده أهل فكر ثاقب سديد يتسنّى لكلّ واحدٍ منهم الوقوف على خواصّ التعاون وفوائده في الاجتماع البشريّ والعمران المدنيّ فإنّ توزيع الأعمال على الأفراد أدعى لإنجازها[٨٣]. ومن نشط فكره في الانتفاع من تلك المكوّنات فهو أعظم نفعًا وأكثر فضلاً ممّن عطّله بخمود فكره[٨٤]. وإذا كان الإنسان يحتاج في إمضاء حاجاته إلى الاجتماع مع بني نوعه؛ للقيام بأعباء تلك الأمور بالتعاون معهم؛ فمن الأجدر به أن يتكاتف وإيّاهم من أجل تحقيق مطالبه الإنسانية الذاتيّة التي تبلّغه السعادة. وكلما عظمت الألفة وقويت الرابطة بين أفراد المجتمع واتّحدت الوجهة زاد متانةً وقوّةً فيقلّ تطرّق الخلل إليه وتسهل أمامه سبل السعادة[٨٥]. إذن فالمقصود من وجود الإنسان هو الوقوف على حقائق الموجودات ومالها من الخواصّ والعمل الذي ينهض به وبأمته إلى أوج السعادة.[٨٦] وهذا هو مقياس التفاضل بين أفراد العالم الإنسانيّ.

إنّ هذا الهدف الاجتماعي الرفيع لدى الإنسان هو الذي جعل القيم الأخلاقية على اختلاف درجاتها وتنوّعاتها قيمًا غير ذاتيّة؛ أي غير خاصّة بكلّ فردٍ على حدة. وصارت ذات أبعاد اجتماعيّة لأنها تخصّ أبناء المجتمع كله، وتنظّم علاقاتهم وفق رؤية معيّنة يتفقون عليها من أجل الوصول إلى الصورة المثلى التي يمكن أن ترقى بهم إلى

---

[٨٣] محمد، سلطان: الفلسفة العربية والأخلاق، مطبعة المعارف، مصر، (١٣٢٩هـ)، ج٢، ص١.

[٨٤] المرجع السابق نفسه.

[٨٥] المرجع السابق، ج٢، ص ٢.

[٨٦] المرجع السابق نفسه.

www.mtenback.com

السعادة الحقيقيّة. وعلى ذلك فإنّ القيم مهما تشكّلت وتعدّدت، فهي بالضرورة اجتماعيّة، بمعنى أنّه مهما يكن اختيار القيمة، فلابدّ أن يتّجه سلوكنا بها إلى المجتمع بخبراته ومواقفه المتنوّعة[٨٧]. وقد تتجاوز الأهداف المباشرة للسلوك إلى تحديد الغايات المثلى في الحياة، فهي إحدى المؤشّرات الهامة لنوعيّة الحياة ومستوى الرقيّ أو التحضّر في مجتمع من المجتمعات[٨٨].

والإيثار من القيم الاجتماعية التي تتجاوز فاعليّتها المدى الذاتيّ لتبلغ أوسع دوائر النفع الاجتماعيّ العام. وهذه الفاعليّة تستند إلى مقومات أساسيّة هي التي تحدّد مسار هذا النفع الشامل. فالغرائز الاجتماعية من حبّ المساعدة والميل إلى الناس ومصادقتهم، وإيلاف العشرة، وإيثار المحبّة تنقلب مع التربية إلى عواطف أساسها الغريزة الغيريّة[٨٩] التي تؤثر الآخرين وتنشد منفعتهم.

وإيثار غير الذات وإنفاق المال المحبوب هو من المؤشرات الاجتماعية الإيجابية؛ فالمؤثر الذي يعطي من المال المحبوب خير من الذي يعطي من الفاضل من أمواله؛ لأنّ الأول يتردّد بين عاطفتين، عاطفة من الإيثار دافعة، وأخرى من الأثرة حاجزة، فإذا أنصت للعاطفة الأولى كان غيريًّا في أخلاقه، محبًّا للناس، يشركهم فيما يحبّ إشراكًا ينتهي به إلى الإيثار والخروج عمّا يحبّ، وإذا دافع النزعة الثانية اتّصف بالإحسان، ولكن لايتّصف بالإيثار. والفرق بينهما أنّ المحسن قد يعطي طلبًا لسمعة طيبة، وقد يعطي للتفضّل والإدلال بأنّه صاحب اليد العليا، وأنّه من المحسنين. أمّا المؤثر

---

[٨٧] زاهر، محمد ضياء: القيم في العملية التربوية، مصر، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩١م، ص ٢٤.

[٨٨] خليفة، عبد اللطيف محمد: ارتقاء القيم، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب سلسلة المعرفة (١٧٣)، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ١٦.

[٨٩] سلامة، إبراهيم: خلق وديـن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر، ط٢، (١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)، ص٧٨.

www.mtenback.com

على نفسه والمتبّرع بأحبّ ماله إليه فهو المحسن حقًا، الداخل في زمرة المحسنين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾[٩٠]. هذه التربية مطلوبة لتحّول غريزة الأنانيّة، تلك الغريزة الفرديّة إلى غريزة اجتماعية[٩١] وذلك لكي يعمّ خيرها الجميع، ولكي تتّسع دائرة نفعها لتشمل كثيرًا من الناس.

ومن أعلى درجات الإيثار، إيثار الإنسان للوطن، والمواطنين على أحبّ مالديه من أبناء وأموال، وهما زينة الحياة الدنيا، يقول جرير[٩٢]:

لَمَّا وَلِيْتُ لِثَغْرِ قَوْمِي مَشْهَدًا آثَرْتُ ذَاكَ عَلَى بَنِيَّ وَمَالِي

فالدوافع النفسيّة التي توجّه همّة الفرد نحو خير المجتمع هي التي تجعله يحسّ بمن حوله إحساسًا إيجابيًا يدفعه إلى التعاون معهم، وتحت تأثير الغرائز الاجتماعيّة يتمثّل الإنسان حال إخوانه من المعدمين الذين لا يجدون ما ينفقون، ومن الضعفاء الخيّرين الذين تدفعهم هممهم إلى الخير، وتقعد بهم فاقتهم فينصرفون عن الخير أشد ما يكونون حبًّا فيه[٩٣].

لقد رقى السخاء النفسيّ بالإيثار إلى ذروة القيم الخلقيّة وذلك لأنّه يمثّل أعلى درجات الجود في الوقت الذي يكون فيه الإنسان في حضيض الحاجة. وقد عدّ الإمام الغزالي أنّ القيام بحقوق الأخوة والصحبة يرقى إلى المرتبة العليا عندما يؤثر المرء أخاه على نفسه، ويقدّم حاجة أخيه على حاجته الذاتيّة وقد قال في ذلك: وهذه رتبة

---

[٩٠] سورة الإنسان: الآية ٨-٩.

[٩١] سلامة: خلق ودين، ط١، ص٧٧.

[٩٢] جرير: ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، (١٩٧١م)، ج٢، ص٩٥٦.

[٩٣] سلامة: خلق ودين، ط١، ص٧٧.

www.mtenback.com

الصدّيقين ومنتهى درجات المتحابين ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضًا، كما روي أنّه سعي بجماعةٍ من الصوفيّة إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين النوري فبادر إلى السّيّاف ليكون أوّل مقتولٍ فقيل له في ذلك فقال: «أحببت أن أوثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة. فكان ذلك سبب نجاة جميعهم»[٩٤].

إنّ مثل هذا اللون من الإيثار هو الذي يقوي الرابطة الأخوية، ويعزّز العلاقات الاجتماعيّة لأنّه يخرج المرء من إطار المصلحة الذاتيّة إلى تحقيق الخير العام الذي ينهض بالمجتمع بأكمله. دخل رجل على هشام بن عبد الملك في زمن ضائقةٍ عمّ الناس وبالها، فقال: يا أمير المؤمنين! أتت علينا ثلاثة أعوام: فعامٌ أذاب الشحّم، وعامٌ أكلَ اللّحم، وعامٌ انتقى العظم، وعندكم فضول أموال، فإن تكن لله فبثّوها في عباد الله، وإن تكن للناس فلِمَ تحجب عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدّقوا بها إنّ الله يجزي المتصدّقين. قال هشام: هل من حاجة غير هذا قال: ما ضربت إليك أكباد الإبل، أدّرِع الهجير، وأخوض الدجى، لخاصٍّ دون عام. يريد ما فعلت ذلك لمنفعة تخصّني!! فأمر هشام بأموال فرّقت في الناس تخفيفًا لضائقتهم، وأمر للرجل بمال فرّقه في قومه[٩٥].

لقد آثر الرجل الخير لمجتمعه، وجعل المصلحة العليا فوق مصلحته الشخصية، فانتفت لديه الأثرة والأنانية. وحركته دوافع الوجدان الجماعيّ ليدرأ السوء عن عامة الناس. وبذلك حظي هذا الرجل بالتقدير الاجتماعيّ من قبل الحاكم والرعيّة معًا ونَعِم بطيب الذكر. ويقال: من آثر الخير ساد به ذكره، وتوفّر عليه أجره [٩٦] ولعلّ أبا

---

[٩٤] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ج٢، ص١٧٣.

[٩٥] خطاب، محمود شيت: أقباس روحانية، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص١٤٥.

[٩٦] التوحيدي، أبو حيان: البصائر النظائر والذخائر، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، مطبعة الإنشاء، دمشق، ج١، ص٢٠١.

www.mtenback.com

العلاء المعرّي قد عبّر خير تعبير عن هذه النزعة، وإيثار الخير الجماعي على المصلحة الذاتيّة، حين قال[٩٧]:

وَلَـو أَنّـي حُبِيْـتُ الخُلْـدَ فَـرْدًا ... لَمَـا أَحْبَبْـتُ بِـالْخُلْدِ انْفِـرادَا

فَـلاَ هَطَلَـتْ عَلَـيَّ وَلاَ بِـأَرْضِي ... سَـحَائِبُ لَيْـسَ تَنْتَظِـمُ البِـلاَدَا

وقد علق علي رضا على هذا قائلاً في هذا الموقف الإيثاري الذي يدّل على نزعة إنسانية عميقة لدى المعرّي: عاطفة سامية لا تعمر إلاّ القلوب الكبيرة... والشاعر بتصويرها لنا على هذا الشكل البعيد عن كلّ أنانية وأثر لايقرّعُ فقط الأنانيين الجشعين، ويزري بهم باحتقاره أثمن ما يتهالكون عليه من نعمة وثراء، بل يرمي إلى غاية سامية أيضًا، وهي عودتنا إلى إخاء يبرّ به بعضنا بعضًا، فلا ننعم إذا نعمنا إلاّ جماعةً، ولا نشقى إذا شقينا إلاّ جماعة[٩٨].

وقد علل أبو نواس حرمان نفسه من متع الحياة مثل المركب الفاره والملبس الفاخر وهو ما اعتاد عليه ردحًا من الزمن بأنّه تخلّى فتخلى عنه إيثارًا لأهل الحاجة من أقربائه الذين يحتاجون إلى معروفه فترك ماتريد نفسه إلى مايريد غيره ووصف ذلك بقوله[٩٩]:

تَقُولُ لِيَ الرُّكْبَانُ مَالَكَ رَاجِلاً ... وَكُنْتَ رَكُوبًا عَصْرَ نَحْنُ رِجَالُ

فَقُلْتُ عَدَانِي عَنْ رُكُوبٍ وَمَلْبَسٍ ... ذَوُو رَحِمٍ آثَرْتُهُمْ وَعِيَالُ

---

[٩٧] المعري، أبو العلاء: ديوان سقط الزند، المطبعة الأدبية، بيروت، (١٣٠٠هـ/١٨٨٤م)، ص٢٦.

[٩٨] رضا علي: الإنشاء الواضح، دار الكتاب العربي، مصر، ط٧، (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)، ص٢٠٦.

[٩٩] أبو نواس: ديوان أبي نواس، دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، (١٣٨٢هـ/١٩٦٢م)، ص٥٣١.

www.mtenback.com

وإذا كانوا يمدحون إيثار الأهل والأقارب والجيران على النفس ويرون فيه ذروة الكرم، فإنّهم كانوا يذمون الأثْرة خاصةً إذا ما كانت تجاه الأقربين، فالفرزدق يهجو جريرًا، ويتهمه أنّه استأثر بأطايب الطعام على زوجته، فيقول[١٠٠]:

آثَرْتَ نَفْسَكَ بِاللَّوِيَّةِ والتي ... كَانَتْ لَهَا وَلِمِثْلِهَا الأَذْخَارُ

إنّ هذا الإحساس السامي هو الذي يكرّس الخير لدى أفراد المجتمع، ويجعلهم يتغلّبون على الأثرة البغيضة التي تنتهي بهم إلى التفكّك والانحدار. وذلك لأنّه يذيب الطموحات الذاتيّة والشخصيّة في البوتقة الاجتماعية العامّة ويقدّم خلاصة تفاعل الجهود الفرديّة لتكون أساس النهوض بالمجتمع فقالوا: إنّ الأثرة الغالبة آفة الإنسان وغول فضائله، إذا سيطرت نزعتها على امرئٍ مَحقت خيره، ونمت شرّه، وحصرته في نطاق ضيقٍ خسيسٍ لايعرف فيه إلاّ شخصه ولايهتاج بالفرح والحزن إلاّ لما يمسّه من خيرٍ أو شرٍّ.. أما الدنيا العريضة والألوف المؤلفة من البشر، فلا يعرفهم إلاّ في حدود مايصل إليه عن طريقهم ليحقّق آماله أو يثير مخاوفه[١٠١].

فالإيثار من الفضائل الأخلاقية التي تحصّن المجتمعات، وتكسبها مناعة قويّة ضدّ كلّ ما يمكن أن ينال من بنيتها الأساسية، أو يمزّق وحدتها. وهذا كلّه بفضل النزعة الغيريّة التي تحرّر الفرد من عبوديّة ذاته ليتجّه بخيره إلى الآخر الذي يشكّل معه هيكل البناء الاجتماعي المتكامل. ولعلّ خير ما يحضرنا هنا ما روي عن النبيّ ﷺ عندما اختصم إليه رجلان في مواريث وأشياء قد دَرَسَتْ فقال عليه السلام: لعلّ أحدكم أن

---

[١٠٠] الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة: ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ت)، ١/٦٠٥.

[١٠١] الغزالي، محمد: خلق المسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج١، ص٢٠٦. انظر رواية أخرى للحديث: البخاري، كتاب الشهادات، باب: مَن أقام البيّنة بعد اليمين.

www.mtenback.com

يكون ألحن بحجّته من الآخر، فمن قضيت له بشيء من حقّ أخيه فإنّما أقطع له قطعةً من النار، فقال كل واحد من الرجلين يا رسول الله حقيّ هذا لصاحبي، فقال لا ولكن اذهبا فتوخّيا ثمّ استهما ثمّ ليُحَلّل كلّ واحدٍ منكما صاحبه[١٠٢].

هذا النموذج الأخلاقيّ السابق يدّل على مدى النضج التربويّ الذي وصل إليه أفراد المجتمع في العصر الأوّل، أولئك الناس الذين قدّموا أروع الأمثلة في الحياة الأخلاقية المتكاملة. ولعلّ قصة الشهداء الثلاثة الذين حضروا معركة اليرموك تعبّر خير تعبير عن المعاني الخلقيّة العميقة لقيمة الإيثار. فقد أُتي عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل بن عمرو وهو ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، ونظر سهيل إلى الحارث وهو ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، وكلٌّ منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة، فماتوا كلّهم قبل أن يشربوا[١٠٣].

إنّ ما وردنا عن هؤلاء الشهداء يصوّر جلال الموقف الخلقيّ المتفوّق الذي يصغر أمامه كلّ جليل. وهذا الجلال ناجم عن التضحية التي هي أعلى درجات الجود والسخاء بالروح، ثمّ عن الإيثار في موقف الضرورة والحاجة. ومن تضافر الإيثار والتضحية تبيّن لنا مدى الكرم النفسيّ الذي تحلّى به هؤلاء الرجال الثلاثة. وهذه الحالة الأخلاقية لم تكن حالة استثنائيّة في مجتمع تشبّع بالمثل العليا، بل هي دالّة على المستوى التربويّ العام للمجتمع العربي المسلم في ذلك الحين.

لقد عكست هذه القصص الأخلاقية في الإيثار أجمل الصور العمليّة التي يمكن أن تبني الشخصيّة بناءً صحيحًا لما تكسبها من المناعة التي تحصّنها ضد الأنانيّة الهدّامة،

---

[١٠٢] القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم: الأمالي في لغة العرب، دار الكتب العلمية، بيروت،، ج١، ص٦.

[١٠٣] المقدسي، أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة: مختصر منهاج القاصدين، دار الإخاء، بيروت، (د.ت)، ص٢٠٨.

www.mtenback.com

كما أنها تبرز مدى المفارقة بين الشحّ النفسيّ وبين الإيثار الذي هو رأس السخاء. فقد بينت لنا هذه القصص كيف يمكن أن يجوع المرء ليشبع غيره، ويعطش ليروى سواه، بل كيف يتقدم إلى الموت في سبيل حياة الآخرين، وما ذلك ببدع ولا غريب على من تشبّعت روحه بمعاني الكمال، وانطبعت في نفسه طباع الخير وحبّ الفضيلة والجميل[١٠٤].

ولعلّ قصّة إيثار الصحابيّين الجليلين عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع من أعمق القصص أثرًا في النفس لما تحمله من معاني الأخوّة الاجتماعية الصادقة لا لأنّها تجاوزت مرحلة الإيثار بالنفس فحسب، بل لأن كلا الطرفين فيها آثر أخاه بما به آثر. فلمّا آثر سعدٌ عبدَ الرحمن بالمال والنفس قال: بارك الله لك فيهما. فكأنّه استأنف هبته له لأنّه قد كان ملّكه إيّاه لسخاء نفسه، وحقيقة زهده، وصدق مودّته فكانت المساواة لسعد والإيثار لعبد الرحمن، فزاد عليه. فقد ورد في الحديث عن أنس أنه قال: «قدم علينا عبد الرحمن بن عوف، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع - وكان كثير المال- فقال سعد: قد علمت الأنصار أنيّ من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين. ولي امرأتان، فانظر أعجبها إليك فأطلّقها، حتى إذا حلّت تزوجتها، فقال عبد الرحمن: «بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟»[١٠٥].

ونرى الآثار التربويّة والمعنويّة المترتّبة على الإيثار، إذ صارت هذه القيمة الأخلاقية دعامة أساسية من دعائم المجتمع العربيّ والإسلامي. لأنها لم تعد مجرّد قيمة سائدة بالمعنى المعتاد المألوف، وإن يكن معنى شريفًا، بل صارت تتطوّر لتولد عنها

---

[١٠٤] الجزائري، أبو بكر جابر: منهاج المسلم، نشر مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، توزيع دار الفكر، بيروت، ط١، (١٩٩٥م)، ص ١٣٦.

[١٠٥] البخاري: صحيح البخاري، ص ٧١٩.

www.mtenback.com

معاني مستجدّة نابعة من طبيعتها الاجتماعية الإيجابية التي تؤدّي إلى نشوء مثل تلك الظواهر الدالّة على عافية المجتمع من الناحية الأخلاقية ولعلّ علاقة المؤاخاة التي تنتفي فيها المصالح الشخصيّة من أهم تلك الظواهر السليمة الناجمة عن قيمة الإيثار[١٠٦]:

إنَّ أَخَاكَ الحقَّ مَنْ كَانَ مَعَكْ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ

وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَّعَكْ شَتَّتَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكْ

لقد شهد المجتمع العربيّ العبَر البالغة نتيجة لسيادة معاني الإيثار فيه وصارت بعض المرويّات مضرب الأمثال لما جسدتّه من المواقف الإنسانيّة النادرة.وصار التاريخ العربي مبعث فخر واعتزاز لنا، وما قصّة كعب بن مامة الإياديّ إلاّ واحدة من تلك المرويّات الشهيرة التي تناقلتها الأخبار بين العرب وصارت حديث الأجيال.فقد خرج ابن مامة الإياديّ في قفْل معهم رجلٌ من بني النّمر، وكان ذلك في حرّ الصيف، فضلّوا وشحّ ماؤهم فكانوا يتصافنون الماء، وذلك أن يُطْرَحَ في القَعْب حصاةٌ، ثمّ يُصبّ فيه من الماء بقدر ما يغمرّ الحصاةَ، فيشرب كلُّ واحدٍ قدْرَ ما يشرب الآخر، ولمّا نزلوا للشرُّب ودار القعبُ بينهم حتّى انتهى إلى كعبٍ، رأى الرّجلَ النمريَّ يُحِدُّ نَظَرَهُ إليه، فآثره بمائه، وقال للساقي: اسق أخاكَ النمريَّ، فشرب النمريُّ نصيبَ كعبٍ من الماء ذلك اليوم. ثمّ نزلوا من الغد منزلَهُمُ الآخرَ فتصافنوا بقيّة مائهم، فنظر إليه كنظرة أمس، وقال كعب كقوله أمس، وارتحل القوم وقالوا ياكعبُ ارتحلْ ! فلم يكن له قوةٌ للنهوض؛ وكانوا قد قربوا من الماء، فقالوا له: رِدْ ياكعب ! إنّك وارد. فعجز عن الجواب. ولما أيسوا منه خيّموا عليه بثوبٍ يمنعه من السّبُع أن يأكُلَهُ وتركوه مكانه فمات فذهب ذلك مثلاً في تفضيل الرجل صاحبَه على نفسه[١٠٧].

---

[١٠٦] المكي، أبو طالب محمد بن أبي الحسن بن عباس: قوت القلوب في معاملة المحبوب، ج٢، ص٢٢١.

[١٠٧] شيخو، لويس: مجاني الأدب في حدائق العرب، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ج٣، ص ٢٤٠.

www.mtenback.com

وقد زعم الفرزدق أنه جاد بنصيبه من الماء وآثر غيره به وتعرض للخطر الذي تعرض له ابن مامه، وأشار إلى أكثر العرب أثرة وجودًا وهما ابن مامة وحاتم الطائي وأنه اقتدى بهما واتخذهما أسوة في ظرف قاس مرَّ عليه فكان منه الإيثار لصاحبه بشربة الماء التي تعادل الحياة بل هي الحياة ذاتها فقال[١٠٨]:

وَنَحْنُ بِذِي الإِرْطَى نَقِيْسُ ظِمَاءَنَا ... لَنَا بِالحَصَى شِرْبًا صَحِيحُ المَقَاسِمِ

فلمَّا تَصَافَنَّا الإِدَاوَةَ أَجْهَشَتْ ... إِلَيَّ غُضُونُ العَنْبَرِيِّ الْجُرَاضِمِ

عَشِيَّةَ خِمْسِ القومِ إِذْ كَانَ مِنْهُمُ ... بَقَايا الأَدَاوِي كَالنُّفُوسِ الكَرَائِمِ

فَآثَرْتُهُ لَمَّا رَأَيْتُ الذِي بِهِ ... عَلَى القَوْمِ أَخْشَى لاَحِقَاتِ المُلاَوِمِ

عَلَى سَاعَةٍ لَوكَانَ فِي القَوْمِ حَاتِمٌ ... عَلَى جُوْدِهِ ضَنَّتْ بِهِ نَفْسُ حَاتِمِ

وَكُنَّا كَأَصْحَابِ ابْنِ مَامَةَ إِذْ سَقَى ... أَخَا النَّمِرِ العَطْشَانَ يَوْمَ الضَّجَاعِمِ

هذا هو الأخ الصديق الذي لم يؤثر أخاه فقط، بل شتّت شمل ذاته ليجمع شمل أخيه، وضحّى بنفسه لينقذه. فكان بذلك نموذجًا خلقيًا رفيعًا للإيثار. لقد حوّل هذا الرجل عقيدته الخلقيّة التي آمن بها إلى فعل خلقيّ وسلوك عمليّ ترجم من خلاله صحّة ما اعتقد به فاستحقّ إجلال الأجيال، وارتقى إلى تحقيق معنى الكرم بأعلى صوره عندما جاد بنفسه في سبيل إنقاذ حياة غيره. فلم يكن يبذل المال فقط، ولم يكن حدُّ سخائه بذل المعروف، وإنّما تجاوز ذلك كلّه وهذا هو الإيثار حتى ولو كان ثمن ذلك الموت. وكفى بتلك النتيجة شاهدًا على جلال الموقف المشمول بالفداء.

لقد آمن العرب بهذه المفاهيم الخلقيّة وعدّوها من معتقداتهم الراسخة، كما عرفوا قدْر الإيثار في مواقف الحاجة وآمنوا به وصنّفوه في أبواب السخاء والجود. فقد

[١٠٨] الفرزدق: ديوانه ج٢، ص٢٩٧.

www.mtenback.com

سألت امرأة جماعةً من قومها عن الكرم؛ فقالوا إنّه بذل المعروف والإيثار على النفس[١٠٩]. وتكفي هذه الإجابة للإعراب عن فاعليّة هذه القيمة الأخلاقيّة على المستوى الاجتماعيّ فالكرم النفسيّ، أو بذل المعروف تجاه الآخرين، أو إيثارهم على الذات. إنّ كلّ هذه المفاهيم تندرج في إطار المصلحة الجماعيّة التي تهدف إلى خير المجتمع وازدهاره.

وهذا عروة بن الورد يحرّم على نفسه السمن إن لم يكن عند جيرانه مثله:

فَإِنَّ حَمِيْتَنَا أَبَدًا حَرَامٌ ... وَلَيْسَ لِجَارِ مَنْزِلِنَا حَمِيْتُ

وَرُبَّتَ شَبْعَةٍ آثَرْتُ فِيْهَا ... يَدًا جَاءَتْ تَغِيْرُ لَهَا هَتِيْتُ

إنّه الذروة في الإيثار، يذكرنا بموقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي وسع دائرة الإيثار لتشمل المجتمع الإسلامي بأسره، وليس الجيران فحسب، وذلك عندما قال في عام المجاعة يخاطب بطنه: «قَرْ قِرْ أو لاَ تُقَرْقِر فلن تذوق السمن قبل أن تذوقه أمة محمد»[١١٠].

إنّ السلوك التربوي المرتبط بالتركيز على قيمة الإيثار من الناحية الفرديّة والاجتماعيّة هو الذي يوجّه سلوك الأفراد نحو غيرهم بقصد النفع العام، حتى يقيهم أذى الشحّ النفسيّ الذي هو باب الظلم والقطيعة الاجتماعيّة المانعة من إقامة العلاقات الإيجابيّة، والتي تؤدي بدورها إلى انهيار المجتمع وتفككه. فالعلاقات السليمة تنتج عن العدل الاجتماعي الذي هو ضدّ الظلم، وعن المراقبة الذاتية المناقضة للفجور المهلك، وعن التواصل الصحيح الذي ينفي القطيعة ويكرّس الألفة ويقوّي الوشائج الاجتماعيّة.

---

[١٠٩] كعكو، أحمد حسن: محاسن الجود والكرم، ط١، مكتبة قباء، سورية، حلب، (١٤٠٣هـ) ص٢٨٥.

[١١٠] عروة بن الورد: ديوان عروة، ص١٧-١٨، والحميت: وعاء السمن. والهتيت: السرعة في الكلام. القاموس المحيط، (حمت، هتت).

www.mtenback.com

ومن هنا نالت قيمة الإيثار مكانة متميزة؛ ففاقت مجرد عطاء المال، لتجسّد العطـــاء في وقت تكون فيه النفس أحوج من الآخرين إلى ذلك. ومن هنا ذكر ابن كثير في المقارنة بين المؤثرين وبين الذين يجودون بمالهم المحبوب بأنّ هؤلاء تصدّقوا به، وقد لايكون لهـــم حاجة إليه ولا ضرورة أمّا أولئك فقد آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. وهو يرى أنّه من هذا المقام تصدّق الصدّيق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ فقال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله[١١١].

ولو أمعنّا النظر في الوظيفة الاجتماعية لقيمة الإيثار للاحظنا أنّ هـــذه القيمـــة كانت لها انعكاساتها النفسيّة والروحيّة والسلوكيّة. وهذه الانعكاسات لم تكـــن ذات طابع سلبيّ إلاّ في حال واحدة؛ عندما تؤثر النفس الجزء المؤقّت من الحياة فتلهو به عما سواه من واجب المشاركة في فعل الخير وعمله.

وأمّا فيما عدا ذلك فإنّ صور الإيثار الأخرى تمثّل النزوع نحو الخـــير والمنفعـــة الاجتماعيّة العامّة التي توزّع اهتماماتها على نحو يحقّق السعادة لكلّ أبناء المجتمع. وهـــي بذلك تحدُّ من الأثرة التي تكرّس الأنانية على المستوى الاجتماعي مما يؤدّي إلى الانحلال وانهيار البنيان الاجتماعيّ.

فالأثر الإيجابيّ الفعّال لقيمة الإيثار هو الذي أعطاها أهمّيّة كـــبرى في إنعـــاش الحياة الاجتماعيّة، وإدارتها بالتدبير الحكيم لتتخلّص من الجمود والركود والتخلّـــف. وذلك كلّه نتيجة لتحوّل العلاقات الاجتماعيّة من اتجاهاتهـــا الســـلبيّة الـــتي تحصـــر الشخصيّة في دائرة الأنا الضيّقة، إلى اتجاهاتها الإيجابيّة التي تحرّر هذه الشـــخصية مـــن وطأة الأنانيّة، وتدفعها إلى الاندماج في الحياة الاجتماعيّة العامّة التي تفيد مـــن هـــذا الاندماج وتوظّفه لصالح المجتمع بأكمله. ومن هذا الذوبان للجهود الفرديّة في إطـــار التوجّه الجماعيّ تتشكّل بُنَى اجتماعية جديدة تسير جميعها في نطاق هذا التوجّه السليم

---

[١١١] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، ج٦، ط١، (١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، ص٦٠٧.

www.mtenback.com

الذي يرقى بالمجتمع بأكمله إلى تحصيل السعادة على المستويين الفرديّ والاجتماعيّ على حدٍّ سواء.

فالميزة الاجتماعيّة الأساسية لقيمة الإيثار هي كونها قيمة أخلاقيّة ذات أثر كبير في إحداث تغييرات جذريّة في طبيعة العلاقات الاجتماعيّة التي تنظّم المجتمع. وانطلاقًا من هذه الميزة استطاعت قيمة الإيثار أن توجه النزعة الفرديّة باتجاه تحقيق غايتها السليمة، و لم توجّهها نحو اتّجاهات وهميّة لا ترتكز إلى دعامة اجتماعيّة صحيحة. وهذا البعد الإيجابيّ لتلك القيمة الأخلاقيّة التي ترسّخ أواصر التلاحم الاجتماعيّ هو الذي بوّأها مرتبةً في العلوّ، وجعلها تبرز أثرها في تغيير الصورة الاجتماعيّة من وجه إلى آخرَ. وبذلك كانت لها أهمّيتها في تحويل العقيدة النظريّة التي تؤمن ببناء الشخصيّة الاجتماعيّة الصحيحة إلى ممارسة فعليّة تترجم هذا الاعتقاد وتبرز قيمته الخلقيّة في البناء الاجتماعيّ العام.

أثر التربية في تنمية شعور الإيثار:

وهدف التربية هو إعداد الانسان وتربيته تربية صالحة تحقق فضائل الحياة الاجتماعيّة من تعاون وتكافل وتضامن ومحبّة، كما أنّها تنمي الحاجة إلى الأنس بالمجتمع عند الناشئ والحاجة إلى الانتماء، والميل إلى التقليد الحسن والاعتزاز بالأمّة، وتغرس فيه ذلك كلّه بعيدًا عن الانحراف أو الاستهتار أو الانقياد الأعمى، ودون فقدان للمواهب الخاصة أو إذابة لمقوّمات الشخصيّة للمواهب. إنها تجمع باتّزان بين تربية الذات الفرديّة وتربية النزعة الاجتماعية من غير أن تطغى إحداهما على الأخرى، أو تنحرف أيٌّ منهما عن الخير وعن طاعة الله وتحقيق شريعته، وعن جادّة الصواب والاستقامة في الحياة[١١٢]. وهذا مايمكن أن نسميه أساس تهذيب النفس، وهو

---

[١١٢] النحلاوي، عبد الرحمن: أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر، دمشق، ط٢، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص١٢٣.

www.mtenback.com

مايصوره ابن الخطيب في غرس الفضائل فيها وتكييف تلك النفس بأمثل الهيئات[١١٣]. وذلك لا يتأتّى للمرء إلاّ بالتهيئة النفسيّة التي تمهّد للانتعاش بالكمالات الخلقيّة منذ نعومه أظفاره. لذلك سعى الإسلام إلى رعاية النفس وتعهُّدِها بالحكمة حتى تستطيع الرقيّ إلى المستوى الخلقيّ اللائق الذي يحقّق لها أهدافها الحيويّة، ويلائم بين تطلّعاتها الفطريّة وحياتها الاجتماعيّة. ومن هنا اتّسمت السلوكيّة الصحيحة بالاعتدال ومراعاة أحوال النفس البشريّة.

إنَّ هذا التوازن التربويّ هو الذي يمدّ النفس بطاقةٍ من النموّ الإيجابيّ الذي ينشد الحياة الصحيحة والحكمة المنظّمة، ولذلك جاء هدف التربية الصحيحة مراعيًا لمقتضيات هذا التوازن. «وهو هدف خصب تتولّد عنه الثمرات الطيّبة وليس عقيمًا لأنّه لا يجافي الفطرة، ولا يصدّ طاقات الإنسان بل يحرّضها على الإنتاج الخيِّر، ويدفعها إليه دفعًا، ويستوفي منها كلّ خيرٍ تستطيع تقديمه للفرد والجماعة والإنسانية»[١١٤].

والأخلاق العربية حثّت على تنمية الفضائل في النفوس وحرصت على تثبيت القيم الخلقية التي تحقّق للمرء التحريض الفعّال الذي يوجّه النفس إلى فعل الخير والعمل به، ومن هنا نالت قيمة الإيثار القسط الأوفى من اهتمام المربين والمصلحين الذين أجهدوا أفكارهم وسخّروا قدرات عقولهم خدمة لتزكية الإيثار والحرص على نشر القناعة به وأهميته في الحياة الخاصة للإنسان والعامة للمجتمع.

وكانت من أوليات اهتمام التربية الحديثة صرف القلوب إلى إيثار النفع العام على الأنانية الفردية وبذلك تكون المحصلة النهائية لأعمال المرء التي ينبغي أن يشغل بها بالجهد الصالح المتّوج بالمكارم الخلقية المؤدية إلى تهذيب الإنسان، وهذا اللون من

---

[١١٣] ابن عبد الله: الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، ص ٦٣.

[١١٤] النحلاوي: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٢٥.

www.mtenback.com

الإيثار إذا مارسه المجتمع الصالح وساد فيه، كرّس القيم المنسجمة مع طبيعته، وصار كل فرد فيه يحاول أن يتمثل ما يدعو المرء إلى صيانة نفسه، وعدم التفريط في حقوقها التي تكفل لها كرامتها. وقال أحدهم موصيًا صاحبه: «آثِرْ بعملك مَعادَكَ، ولا تدع لشهوتك رشادَكَ، وليكن عقلُك وزيرَك الذي يدعوك إلى الهدى، ويَعْصِمك من الرَّدى، ألجِمْ هواكَ عن الفواحش، وأَطلِقْه في المكارم، فإنّك تبرّ بذلك سَلَفَك، وتشيد شرفك»[١١٥]. وهذه التربية الأخلاقيّة أنشأت أفرادًا جعلوا همّتهم التمسّك بالبرّ وإشادة الشرف.

وانطلاقًا من الأسس التربويّة القائمة على إيثار الآخر، اتّجه أفراد المجتمع إلى الإخاء الأمثل الذي يتنازل فيه كلّ طرفٍ عن مصالحه الذاتية في سبيل حاجة الطرف الآخر.

إذن لقد كرّست المثل العربية قيمة الإيثار وحضّ أفراد المجتمع على تمثّلها والعمل بمقتضى أبعادها الأخلاقيّة التي تطهّر النفوس من الغايات الفرديّة، وتؤلّف بين القلوب الساعية إلى عمارة المجتمع السليم. ومن هنا يتّضح لنا شرف موقف أبي سليمان الداراني حين قال: «لو أنّ لي الدنيا كلّها فجعلتها في فم أخٍ من إخواني لاستقللتها له». وقوله: «إنّي لألقم اللقمة أخًا من إخواني فأجد طعمها في حلقي»[١١٦].

وهذا يعني أن اصطفاء الآخرين والإحسان إليهم هو الذي أثمر مثل تلك المواقف الأخلاقيّة التي تلغي الأنانية المذمومة، وتدعو إلى الحبّ والوئام. قال ابن عمر رضي الله عنه: «أهدي لرجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: أخي فلان أحوج منّي إليه فبعث به ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتّى

---

[١١٥] صفوت، أحمد زكي: جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، (١٣٨١هـ/١٩٦٢م)، ج٣، ص ٢٣١.

[١١٦] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص ١٧٤.

www.mtenback.com

رجع إلى الأوّل بعد أن تداوله سبعة»[١١٧]، و لم يكن انتقاله من يد إلى أخرى زهـــدًا فيه، أو استغناء بغيره عنه، لكنها الأثرة وتقديم حاجات الآخريـــن علـــى الحاجـــات الخاصة، بنفس راضية تتلذذ بالإحسان إلى الآخرين، وتستمتع بقهر النفـــس وشـــحّها وحرصها على الدنيا الفانية.

إنّ إحساس أفراد المجتمع الإنساني بأنّ حبّهم لأولادهم وأهلهم ناجم عن دوافع داخليّة متعلقّة بإيثار الحياة الدنيا، هو الذي جعلهم يؤثرون إخوتهم الذين لهم عليهـــم حقّ الصحبة؛ فالقيام بهذا الحقّ من العوامل التي تنيل القرب من الناس وتحبّب بعضهـــم إلى بعض.

وقد كان الحسن يقول: «إخواننا أحبّ إلينا من أهلنـــا وأولادنـــا؛ لأنّ أهلنـــا يذكّروننا بالدنيا، وإخواننا يذكّروننا بالآخرة»[١١٨].

على هذا النحو نما حبّ الخير في نفوس هؤلاء الناس فاستغنوا، بل نقول قدمـــوا حاجات غيرهم على حاجاتهم الخاصة. ونهضت بهم الهمّة النفسيّة إلى الإيثار. فصـــار شعور الفرد العربي شعوراً إنسانيًا بحبّ الخير، والرغبة في الإيثار على النفس والأهـــل والولد[١١٩].

ومن الأمثلة الحية على الإيثار، ماوقع بين الصحابة رضوان الله عليهـــم وبـــين رسول الله ﷺ، حين آثروه على أنفسهم، وتركوا له حرية التصرف في الفيء والمغـــانم، مع شديد حاجتهم إلى شيء من ذلك، لكنها النفوس العالية التي تربت على إنكار الذات، وقمع شهواتها والسعي في مصالح الآخرين، يقول حسان بن ثابت في هذا[١٢٠]:

---

[١١٧] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص ١٧٤.

[١١٨] المرجع السابق، ج٢، ص ١٧٦.

[١١٩] الجزائري، أبو بكر جابر: منهاج المسلم، ص ١٣٦.

[١٢٠] حسان بن ثابت: ديوانه، ص٢٢٩.

www.mtenback.com

جَعَلْنَا بَنِيْنَا دُوْنَهُ وَبَنَاتِنَا وَطِبْنَا لَهُ نَفْسًا بِفَيْءِ المَغَانِمِ

لقد آثر المسلمون الرسول على أنفسهم وعلى أولادهم، كما آثروه بأموالهم، ولم يكن هذا الإيثار مجرّد عطاء عاديّ، بل كان في غاية السخاء النفسيّ المقترن بالرضا. وكلّ ذلك بفضل التأثير التربويّ للعقيدة الإسلامية في نفوس هؤلاء المؤمنين الذين تشبّعوا بالمباديء الخلقيّة الرفيعة الداعية إلى بناء مجتمعٍ حضاريٍ معافى.

ولم تقف حدود فاعليّة الإيثار في المجتمع عند هذا الحدّ، بل إنّها تعدّته إلى أكثر من ذلك فنفوسهم ونفوس أبنائهم فداءً للرسول ﷺ، وهو محكم في أموالهم يهب مايشاء منها لمن يشاء، ولا يعصى في شيء من ذلك، يقول حسان رضي الله عنه[121]:

فَنَادِ بِمَا كُنْتَ أَخْفَيْتَهُ نِدَاءً جِهَارًا، وَلاَ تَكْتَمْ

فَإِنَّا وَأَوْلاَدَنَا جُنَّةٌ نَقِيْكَ وَفِيْ مَالِنَا فَاحْتَكِمْ

نلاحظ أن هذه الكلمات تحمل نبرة التأييد لمن نال محبة الناس وقرب من قلوبهم بلطفه وهي لا تكتفي بالتأييد فحسب، بل إنّها تحوّل هذا الموقف إلى ممارسة عمليّة مجسّدة الجود بالنفس والمال والولد وتقديم كل ذلك في حال سيادة الرضا النفسي والقناعة بنتائجه.

ولعلّ موقف الفداء الذي اختصّ به الصحابيّ الجليل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يعبّر أروع تعبير عن الإيثار. فعندما عزم سيّد الأمّة على الهجرة عرَضَ عليه أن ينام في فراشه؛ فلم يتردّد عليٌّ رضي الله عنه في أن يقدّم نفسه فداء. ونام على فراشٍ لا يدري متى تتخطفه الأيدي ويلقاه الموت الذي بيّتوه. ولكنّه آثر رسول الله ﷺ بالحياة، فضرب بذلك، على حداثة سنة، أروع مثلٍ في التضحية والفداء[122].

---

[121] ابن ثابت، حسان: ديوانه، ص٢٢٣.

[122] الجزائري: منهاج المسلم، ص ١٣٧.

www.mtenback.com

لقد صنع الاعتقاد بقيمة الإيثار في المجتمع العربي نماذج سلوكيّة رائعة عكست مدى العمق الخلقيّ الذي اتسم به أبناء هذا المجتمع. كما عبّرت عن العفّة النفسيّة الداعية إلى التخلُّق بمثل ذلك الخلق. فقد رُوِيَ «أنّه اجتمع عند أبي الحسن الأنطاكيّ نيّفٌ وثلاثون رجلاً لهم أرغفة معدودة لا تكفيهم شبعًا، فكسروها وأطفؤوا السراج، وجلسوا للأكل. فلمّا رفعت السفرة، فإذا الأرغفة محلّها لم ينقص منها شيء لأنّ أحدًا منهم لم يأكل إيثارًا للآخرين على نفسه حتى يأكلوا جميعًا. آثر كلّ منهم غيره، فكانوا من أهل الإيثار جميعًا»[١٢٣].

إنّ مثل هؤلاء الأفراد هم الذين يستطيعون بناء صرح مجتمعٍ سليمٍ خالٍ من أسباب الأنانية الاجتماعيّة الهدّامة؛ لأنّ الذي يضحّي بقوته في سبيل غيره تكون نفسه مهيّأةً لفاعليّةٍ خلقيّةٍ أكبر. وهذه الفاعليّة الخلقيّة هي دعامة المجتمع التي لا يصحّ قيامه بدونها. فالمصالح المادية، وقضايا التبادل الاستهلاكيّ بالإضافة إلى تكاثر النوع الإنسانيّ، كلُّ ذلك من مقوّمات وجود المجتمعات، ولكنّ هذه المقوّمات جميعًا تفقد قيمتها إن لم تتوفّر الناحية الأخلاقيّة المنظّمة للعلاقات الاجتماعيّة التي تضبطها، حتى تسير في الاتجاه الصحيح. لأن الأخلاق الإيجابية هي أساس الازدهار الاجتماعيّ. والكرمُ النفسيُّ خلقٌ يورث الخصوبة المخلّصة من قحط السنين. قال البوصيري[١٢٤]:

وَعَلَى الخَصَاصَةِ يُؤْثِرُوْنَ بِزَادِهِم ... وَيَلَذُّ مِنْ كَرَمٍ لَهُمْ أَنْ يَسْغَبُوا

لاَ تَنْزَعُ اللُّوَّامُ أَثْوَابَ النَّدَى ... عَنْهُم وَيُخْصِبُ جُودُهُمْ أَنْ يُجْدِبُوا

---

[١٢٣] الجزائري: منهاج المسلم، ص ١٣٧.

[١٢٤] البوصيري، محمد بن سعيد: ديوان البوصيري، ط١، (١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، ثم: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ص ٤٥.

www.mtenback.com

وعندما نتحدّث هنا عن الازدهار الاجتماعي، فنحن لا نعني بذلك المظاهر البرّاقة التي تخدع القلوب أحيانًا، ثمّ ما تلبث أن تؤول إلى الزوال، وإنّما نعني الازدهار الحقيقيّ الّذي ينطوي على مقوّمات نهوضٍ صحيحٍ يورث الفَلاح والخير، ويؤدي بالجميع إلى حالة من الاستقرار النفسيّ والاجتماعيّ. فإذا لم تطمئنّ نفس الفرد الذي هو نواة المجتمع إلى جملة القيم السائدة فيه، لا يمكن أن يكون فردًا منتجًا وفعّالاً؛ وبالتالي لا يمكن أن يتحقّق التقدّم الاجتماعي المنشود. ومن هنا كان التركيز على القيم الأخلاقيّة البنّاءة التي ترسم مسار أبناء المجتمع، وتدبّر شؤونهم على المستويين الداخليّ والخارجيّ، أي فيما يخصّ ذواتهم من الداخل، وفيما يخصّ علاقاتهم الاجتماعية.

و لم تكن المنافع الضروريّة تستعبد أبناء المجتمع؛ لأن توجّهات هؤلاء الأفراد لم تكن نفعيّة بقدر ما كانت إنسانيّة تراعي إنسانيّة الإنسان، وتؤثر الأخلاق الخيّرة. لقد انطلقت هذه التوجّهات بأصحابها من اصطفاء السير نحو البارئ الذي خصّهم بمعطيات كرمه؛ فكان منهم العرفان بالجميل. وهذا ما جعلهم يُعرِضون عن التمسُّك بالأعراض الفانية ويؤثرون غيرهم. «حكي أنّ بشر بن الحارث أتاه رجلٌ في مرضه الذي توفّي فيه؛ فنزع بشر قميصه الذي كان عليه، فأعطاه إيّاه»[١٢٥].

يمثل هذه القيم الأخلاقيّة ينهض المجتمع الانساني الذي يؤثر أفراده التكافل الاجتماعيّ، وينزعون إلى التعاون الذي يحقّق لهم الحياة الكريمة. فلم يكن أحدهم يبالي بغناه أو بفقره بقدر ما كان يعنيه تحقيق هذا التكافل البنّاء. وفي هذا المعنى يقول الشاعر[١٢٦]:

سأَقْدَحُ مِنْ قِدْرِي نَصِيبًا لِجَارَتي وَإِنْ كَان مَا فِيها كَفَافًا عَلَى أَهْلِي

---

[١٢٥] الجزائري، أبو بكر: مهاج المسلم، ص ١٣٧.

[١٢٦] الأصبهاني، الراغب: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج٢، ص ٦٥٢.

www.mtenback.com

ولم تذهب الطبيعة الإنسانية إلى تهذيب النفوس وتوجهها نحو الإيثار فحسب، بل إنّها دعت المرء إلى إنكار الذات بحيث لا يرى المرء لنفسه على الآخرين فضلاً إنْ هو آثرهم بشيء. وهذا من آداب المصاحبة. يقول بعض الحكماء في ذلك: «أمّا الصحبة مع الفقراء فبإيثارهم وتقديمهم على نفسك في المأكول والمشروب والملبوس والملذوذ والمجالس وكلّ شيء نفيس، وترى نفسك دونهم، ولا ترى لها عليهم فضلاً في شيءٍ من الأشياء البتّة»[١٢٧].

لقد وعت التربية الصالحة الجوانب النفسيّة والروحيّة والفكرية للإنسان، وعلى أساسٍ من هذا الوعي بنت أسسها الأخلاقيّة التي تهدف إلى وضع صورة متكاملة لنظام متكامل يضبط الحياة الاجتماعيّة العامّة بكلّ غناها وخصبها. ولم تأخذ هذه التربية مداها إلاّ بفضل المربّي القدوة الذي يجسد أبعاد التصور المجرد للفضيلة بتجربة واقعية يشهدها الناس.

لقد برز تأثير التربية بصورة بيّنة لدى أفراد المجتمع العربي المسلم الذين تمثّلوا تلك المعاني التربويّة؛ فساد بينهم التواصي بالحقّ، وتخلّصوا من الشحّ الذي قد يبلغ بالمرء إلى استمراء أن يأكل مال أخيه ظلمًا، أو تطمح عينه إلى ما ليس له ولا تسمح نفسه بأن يكون لغيره[١٢٨]. وهو باب من البخل وإن كان يوجد فرق بينه وبين البخل كما ذهب بعض المفسّرين الذين قالوا إنّ البخل هو المنع نفسه، أمّا الشحّ فهو الحالة النفسانيّة التي تقتضي ذلك المنع[١٢٩].

---

[١٢٧] الجيلاني، عبد القادر: الغنية لطالبي طريق الحق، دار الألباب، دمشق، (د.ت)، ج٢، ص١٧٠.

[١٢٨] الآلوسي، محمود شكري: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٤، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج٢٧، ص٥٣.

[١٢٩] الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، المطبعة المصرية بميدان الأزهر، مصر، ط٣، (١٣٠٢هـ)، ج٢٩، ص ٢٨٧.

www.mtenback.com

مهما اختلفت آراء المفسّرين في مسألة البعد المعنويّ للشحّ، فإنهم مجمعون على ارتباطه بالخسّة النفسيّة واللؤم والحرص المانع من الخير. ولذلك اتّجهت العقيدة إلى تطهير نفوس الأفراد من تلك الأوصاف المذمومة التي تحطُّ من كرامة النفس، وتجرح سلامة ضميره؛ فقابلت ذلك الانحطاط النفسيّ بقيمة الإيثار، وتميّزت تلك القيمة بنقيضها الذي «هو أكل أموال الناس بغير حق»[١٣٠] والتعامل معهم من خلال الآفات النفسية التي تدفع بالمرء إلى سلوك أسوأ السبل من أجل الوصول إلى تحقيق مصالحه الفرديّة.

إن الأثر التربويّ للسلوك القويم لم يقف عند حدود المجتمع العربي الإسلاميّ الأوّل؛ وإنّما امتدّ عبر الأجيال اللاحقة التي نمت وترعرت في ظلّ الحضارة الإسلامية الداعية إلى إيثار الخير، ونبذ الأثرة. وهاهو الواقديّ ينقل لنا قصّة رائعة تجسّد معنى الإيثار، وتبرز أبعاده الإنسانيّة. يقول في ذلك: كان لي صديقان، وكنّا كنفس واحدة. فنالتني ضيقة شديدة. وحضر العيد؛ فقالت لي إمرأتي: أمّا نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدّة؛ وأمّا صبياننا هؤلاء فقد قطّعوا قلبي رحمةً لهم؛ لأنّهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم، وأصلحوا ثيابهم؛ وهم على هذه الحالة من الثياب الرثّة. فلو احتلت في شيءٍ تصرفه في كسوتهم. فكتبت إلى صديقي الهاشميّ أسأله التوسعة عليّ إن حضره شيء. فوجّه كيسًا مختومًا وما ذكر أنّ فيه ألف درهم. فما استقرّ قراري حتّى كتب إليّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي الهاشميّ. فوجّهت إليه الكيس بماله، وخرجت إلى المسجد مستحيًا من امرأتي. فلمّا دخلت عليها استحسنت ما كان منّي، و لم تعنّفني عليه. فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقي

---

[١٣٠] الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير آي القرآن، ط١، (١٣٢٩هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، دار المعرفة، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، م١٢، ص٢٩.

www.mtenback.com

الهاشميّ ومعه الكيس كهيئته. فقال لي: اصدقني عمّا فعلته فيما وجّهت به إليك. فعرّفته الخبر. فقال لي: إنّك وجّهت إليّ وما أملك على الأرض إلاّ ما بعثت به إليك. وكتبتُ إلى صديقنا أسأله المواساة؛ فوجّه كيسي بخاتمي. قال الواقدي: فتواسينا الألف درهم فيما بيننا، ثمّ إنّا أخرجنا للمرأة مائة درهم. ونما الخبر إلى المأمون، فدعاني، فشرحت له الخبر؛ فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكلٍّ واحدٍ منا ألفا دينار وللمرأة ألف دينار[١٣١].

هذه النماذج الأخلاقيّة هي محصّلة جهدٍ تربويٍّ عظيم استغرق أجيالاً بأكملها حتى برز على هذا النحو من النزوع الإنسانيّ. فصورة القدوة ظلّت ماثلةً في الأذهان منذ مؤاخاة المهاجرين والأنصار، ومنذ أن آثر الأنصار المهاجرين بالفيء. ثم تتالت صور الإيثار التي أبرزت بجلاء التضامن الاجتماعي في المجتمع العربي المسلم الذي حاول أفراده تمثُّل تلك المعاني الخلقيّة بصورةٍ واقعيّة. فالتجسيد العمليّ للقيم التي أبرزتها دعوة الإسلام هو خير برهان على صدق العاملين بها، وإلاّ انتفت إيجابيّة القدوة الحسنة.

وصار العمل بهذه القيم جزءًا من التكوين الفكريّ والخلقيّ لأفراد هذا المجتمع. هذا التكوين الذي شكّلته جملة المعتقدات السلوكيّة الناتجة عن التربية السليمة، حين عملت بالهدي القرآني والتوجيه النبويّ المنظّم لحياة أبناء المجتمع.

لقد كان للإيثار أعظم الفضل في تربية النفوس عن طريق القدوة ومجاراة المؤثرين ومحاكاة أهل الفضل، لهذا تتجه النفوس إلى مركز الإيثار وتأخذ منه درسًا تربويًا، وقد يكون في قصص بعض المؤثرين ما يشد انتباه القارئ حتى ولو كان الإيثار من منطلق الرحمة والعطف والشفقة، ولو كان على الحيوان إذ إنّه يشارك الإنسان آلام

---

[١٣١] البابي، تقي الدين عبد الملك: نزهة الناظرين في تفسير آيات من كتاب ربّ العالمين، المطبعة الميمنية، مصر، (١٣٠٨هـ)، الباب الثالث في مدح الإيثار، ص ٢٢٣.

www.mtenback.com

الجوع والظمأ والحاجة إلى الأثرة التي قد تتجاوز الإنسان إلى الحيوان، ومن ذلك ما نقل من خبر عبدالله بن جعفر عندما خرج إلى ضيعة له، فنزل على نخلٍ لقوم، فيها غلام أسود يعمل فيها؛ إذ أتى الغلام بِقُوْته، فدخل الحائط كلب، فدنا من الغلام، فرمى إليه قرصًا فأكله، ثمّ رمى إليه قرصًا آخر فأكله، ثمّ رمى إليه الثالث فأكله؛ وعبدالله ينظر. فقال: يا غلام! كم قوتك كلّ يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فَلِمَ آثرتَ به هذا الكلب ؟. قال: أرضنا ماهي بأرض كلاب. جاء من مسافة بعيدة جائعًا فكرهت ردّه. قال: فما أنت صانع ؟. قال: أطوي يومي هذا. فقال عبد الله بن جعفر أُلامُ على السخاء وهذا أسخى منّي. فاشترى الحائط وما فيه من الآلات واشترى الغلام وأعتقه ووهبه له[١٣٢].

هذه هي صور الإيثار. وهذه هي صور الجود والسخاء بكلّ ما فيها من أبعادٍ إنسانيّة عميقة تدلُّ على عظمة الوظيفة التربوية التي تكرّس الوعي الاجتماعيّ، وتهتم بتربية الضمير حتّى يكون يقظًا مدركًا لما يصدر عنه من الأفعال؛ فلا يوجّهها إلاّ في المسارات السليمة المنضبطة في إطار الفضيلة. وكان سبيله إلى تحقيق ذلك كلّه، العناية بمجمل القوى المعنويّة التي تشكّل عمليّة الإدراك، وتعي الأبعاد الاجتماعيّة المرتبطة بتلك المواقف التربويّة.

إنَّ التوجيهات التربويّة التي سعت إلى تنظيم حياة المجتمع الإنساني تهدف إلى تعهّد النفوس بالرعاية الموجبة لكلّ خلق حسن. وتحاول في الوقت ذاته أن تُقصي عنها كلَّ خلق ذميم. ومن هنا حاربت - كما ذكرنا - الشحَّ وهو المنع الذاتيّ الذي تقتضيه الحالة النفسية[١٣٣]. ووجّهت الإرادة نحو اختيار الفضائل الداعية إلى السخاء النفسيّ الذي هو باب الخير. وقد استطاعت أن تسوس المجتمع خير سياسة من خلال

---

[١٣٢] المقدسي: مختصر منهاج القاصدين، ص ٢٠٨.

[١٣٣] النيسابوري: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج٢٨، ٤٢. على هامش تفسير الطبري.

www.mtenback.com

طبعه بهذه القيم التي شكّلت الأركان الأساسيّة في بنائه. ونتيجةً لذلك سادت القناعة وآثرها أفراد المجتمع على الطمع الذي هو باب من أبواب الشحّ النفسي. فأحسّوا بالطمأنينة الناجمة عن القضاء على القلق المقترن بمنازعة النفس من أجل تحقيق غاياتها. وفي ذلك يقول الشافعي[١٣٤]:

أَمَتُّ مَطَامِعِي، فَأَرَحْتُ نَفْسِي ... فَإِنّ النَّفْسَ مَا طَمِعَتْ تَهُونُ

وَأَحْيَيْتُ القُنُوعَ، وَكَانَ مَيْتًا ... فَفِي إِحْيَائِهِ عِرْضٌ مَصُوْنُ

إِذَا طَمَعٌ يَحِلُّ بِقَلْبِ عَبْدٍ ... عَلَتْهُ مَهَانَةٌ وَعَلاَه هُونُ

ولقد تنبّه أبناء المجتمع العربي إلى خطورة الآفات النفسيّة التي يمكن أن تهدد كرامة المرء، وتنتهي به إلى المهانة التي هي من دواعي سقوط النفس وانحطاطها. وهذا التنبّه جعلهم يعزفون عن الأخلاق السلبيّة، وينزعون إلى الشمائل الخلقيّة الموصلة إلى السعادة.

هذه السياسة الخلقيّة التي سادت في المجتمع لم تقف عند حدّ نشر القيم أو تكريسها، بل امتدّت بفاعليّتها أكثر من ذلك فطوّرت هذه القيم وعمّقت الاعتقاد بها إلى أن غدت تلك القيم مهيمنةً على العقول، وموجّهة للإرادة التي تمثّلتها وعملت بها. وقد تطوّرت قيمة الكرم العربيّ داخل الذات العربيّة المسلمة لترقى إلى درجة الإيثار. وبذلك نجحت العقيدة في مضاعفة فاعليّة القيم التي كانت ماثلةً أصلاً في التركيب النفسيّ للإنسان ، وعملت على تزكية نفسه وترقيتها وذلك بما أكسبتها من التهذيب الرفيع الذي حقّق لها تكاملها الداخليّ.

---

[١٣٤] الشافعي، محمّد بن إدريس: ديوان الشافعي، تحقيق: زهدي يكن، دار الثقافة، بيروت، (١٩٦١م)، ص١٧٤.

www.mtenback.com

نتيجة لهذا المنحى التربويّ الذي اتّبعته السياسة الأخلاقيّة في الإسلام تشكّلت الصور السلوكيّة التي عبّرت خير تعبير عن التفاعل مع تلك القيم الحيويّة. فمن تلك الصور موقف المهلّب بن أبي صفرة الذي كان يربّي أبناءه على الجود والإيثار فيقول لهم: «يا بَنِيَّ إنّ ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم، ودوابّكم تحت غيركم أحسن منها تحتكم»[١٣٥].

وهذه ملاحظة أخلاقية تؤكد نبذ الحرص الناتج عن الشحّ الذي يمنع النفس من الخير، ويلقي بها في مهاوي الأنانية البغيضة، فترتدّ عاجزةً عن احتياز عقبات كيانها الداخليّ.

وإنّ النفوس التي جُبلت على المواقف التربويّة العظيمة خلال مراحل تاريخها الحضاريّ الطويل، ظلّت تميل إلى الصور الخلقيّة الإيجابيّة للشخصيّة العربية الكريمة ومن أمثلة ذلك تلك اللوحة الشعريّة المتكاملة التي تصف الشخصيّة المثالية، والتي يقول صاحبها[١٣٦]:

كَرِيْمٌ كَرِيْمُ الأُمَّهَاتِ مُهَذَّبٌ ... تُحَلِّبُ كَفَّاهُ النَّدَى وَأَنَامِلُهْ

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ ... فَلُجَّتُهُ الْمَعْرُوْفُ وَالْجُوْدُ سَاحِلُهْ

جَوَادٌ إِذَا مَاجِئْتَ لِلْعُرْفِ طَالِبًا ... حَبَاكَ بِمَا تَحْوِي عَلَيْهِ أَنَامِلُهْ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوْحِهِ ... لَجَادَ بِهَا... فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهْ

نلاحظ كيف نمت قيمة الإيثار في ذات الموصوف، وهو فرد في مجتمع عربيّ إلى أن صارت قيمة متطوّرة يؤثر صاحبها الآخرين بعطائه ولو أدّى ذلك إلى الجود بروحه.

---

[١٣٥] البيهقي، إبراهيم بن محمّد: المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمّد سويد، ط١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، دار إحياء العلوم، بيروت، ص٢٢٢.

[١٣٦] المرجع السابق، ص٢٤٠.

www.mtenback.com

وتنقلنا فكرة (الجود بالروح) إلى أجواء قصّة تعدُّ من عجائب ما ذُكِرَ في الإيثار، فقد حكى أبو محمّد الأزديّ، قال: لمّا احترق المسجدُ بِمَرْوٍ أحرقت لذلك بعض الخانات. فقبض السلطانُ على جماعةٍ من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعًا فيها القَطْعُ والجَلْدُ والقتل ونَثَرَها عليهم، فمن وقع عليه رقعةٌ فُعِلَ به ما فيها. فوقعت رقعةٌ فيها القتلُ بيَدِ رجلٍ، فقال: والله ما كنت أبالي لولا أمٌّ لي. وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له: في رقعتي الجَلْد وليس لي أمّ. فخذ أنت رقعتي وأعطني رقعتك. فَفَعَلَ فقُتِلَ ذلك الفتى وتخلّص هذا الرجل[١٣٧].

إنّ هذه القصة تعكس لنا مدى الإيثار لدى أبناء المجتمع حين يؤثر بعضه بعضًا حتى في أحرج المواقف وذهاب النفس، وماذلك إلا أن قلوبهم استقبلت القيم الروحيّة المهذّبة للنفس، وانفعلت بتلك القيم فجسّدتها في واقعها. وهذا الانفعال الخلقيّ هو الذي طهّر ذواتهم، فسارت إرادتهم في اتجاه تحقيق الأهداف السامية التي سعت الأمة إلى تثبيت أركانها. فكانت تلك القيم الجزئيّة الأرضيّة الممهّدة لإبراز فاعليّة تلك الأهداف في صورتها الكلّيّة المتكاملة.

هذا، وقد تجلّى حرص العرب في الحفاظ على القيم الإيجابيّة من خلال تصدّيهم للأثرة التي هي من أعظم الآفات النفسيّة التي تفتك بروح المرء. وقد حارب العرب الأثرة الظالمة بالأخوّة العادلة، وأفهم الإنسان أنّ الحياة ليست له وحده، وأنها لا تصلح إلاّ به وبالآخرين معه، ولذلك عليه أن يعلم أنّ هناك أناسًا مثله، إن ذَكر حقّه عليهم ومصلحته عندهم فليذكر حقوقهم عليه ومصالحهم عنده. وتذكّر ذلك يخلع المرء من أثرته الصغيرة ويحمله على الشعور بغيره حين يشعر بنفسه فلا يتزيّد ولا يقتات[١٣٨].

---

[١٣٧] شيخو، لويس: مجاني الأدب في حدائق العرب، ج١، ص٧٠.

[١٣٨] الغزالي، محمّد: خلق المسلم، ص١٤٣.

www.mtenback.com

ورغم موقف الإسلام التربويّ تجاه الأثرة فقد تفشّت في العهود المتأخّرة نتيجة إهمال القيم، وسيادة الأخلاق المذمومة والحالة الأخلاقية المتردّية التي تبرز في المجتمع حال انحرافه عن مسار التلاحم والتراحم الذي دعت إليه تلك القيم، فبالألفة تتوطّد العلائق بين الأفراد، وتقوى الرابطة بين الجماعات، ويعمل الكلّ متّحدين على مكافحة معترضات الحياة، وتذليل صعابها، فتفتح أمامهم الطرق، ويسهل عليهم عبورها، حتّى يصلوا إلى ما يشاؤون من بلوغ النجاح ونيل الآمال، ومن هذا يتّضح لنا سوء عاقبة مَنْ انشقّ على إخوانه، وقطع حبل المودّة فيما بينه وبينهم، فإنّه لا يزال تتخبّطه الوساوس، وتتلقّفه الحوادث، ولا من يرشده أو يشاركه في دفع ضرٍّ أو جرّ مغنم[١٣٩] وذلك لأنه تنكّر للقيم الأخلاقيّة الداعية إلى الاندماج في الجماعة من أجل بناء حياة اجتماعيّة ناجحة ونافعة يقوم أساسها على التكافل والتضحية من أجل المجموعة وصالحها.

إنّ الألفة الموجودة بين أفراد المجتمع ليست ممارسةً اجتماعيةً مجرّدةً نَشِطَ لتحقيقها أفرادٌ معيّنون فحسب، وإنّما هي تآلف فطري ينسجم مع الفطرة الحسنة ينبغي الحفاظ على بنيانه. لذلك فإنّ الخلق القويم يوجب العمل بمقتضى القانون الإلهي، وفق سننه في تصريف الكون، وتدبيره والعمل بمقتضى هذا القانون يعني الحفاظ على الأخوّة الموطّدة للعلاقات الاجتماعية الداعية إلى التوحيد العام.

والإيثار من أهمّ العوامل التي تقوي هذه الروابط والعلاقات بين أبناء المجتمع. فمن حق الأخ على أخيه أن يؤثره على نفسه بحظه من الدنيا أو بعض حظه إذا كان محتاجًا إليه[١٤٠].

---

[١٣٩] الدجوي: إتمام فتح الخلّاق في مكارم الأخلاق، ص ١٤٠.

[١٤٠] المكّي: قوت القلوب في معاملة المحبوب ج٢، ص ٢١٩.

www.mtenback.com

وقد عدّ أبو طالب المكّي أنّ هذا أحد شروط الحب، إلى جانب ترك التحاسد المؤدي إلى الغلّ والأذى النفسيّ، الذي هو السبيل إلى الهلاك.

ونجد أنّ الإيثار الذي هو غاية الخير اقترن بالانصراف عن الحسد الذي هو غاية الشر. وربما ارتقى الإيثار بأهله إلى رتبة الصديقين العليا التي تقف دونها كلّ رتبة. وذلك لأنها تتطلب الجود ليس بالمال فحسب، بل بالنفس أيضًا. وهو يطالب أفراد المجتمع بالتحلّي بهذه الخصلة الأخلاقيّة الشريفة لما لها من انعكاس إيجابي في حياة المجتمع كله، ولما تؤدّي إليه من النهوض الاجتماعي الذي يحقّق حالةً من اليقظة والوعي ممّا يؤدّي بالتالي إلى تماسك البنية الداخلية للكيان البشري. ويمكن أن يقال إنه: «ينبغي أن يؤثر المرء أخاه بنفسه وماله إن احتاج إلى ذلك، فإن لم يكن في هذه المنزلة وهو مقام الصّدّيقين فيساويه في حاله، وهذا من مقام الصّادقين، وهذا أقلّ منازل الأخوّة، وهو من أخلاق المؤمنين»[١٤١].

ومن أروع صور إيثار الإخوان والأصدقاء بالنفس، ما قاله صفي الدين الحلّي[١٤٢]:

يَا سَادَةً شَخْصُهُم فِي نَاظِرِي أَبَدًا ... وَطِيْبُ ذِكْرِهِمُ فِي خَاطِرِي وَفَمِي

وَالله لو عَلِمَتْ رُوْحِي بِأَنَّ لَكُمْ ... فِي قَتْلِتي غَرَضًا آثَرْتُكُمْ بِدَمِي

ونلاحظ أنّ التوجّهات التربويّة في المجتمع لا تهدف إلى إقامة المساواة بين الفردين المتآخيين فحسب بل إنّها تدعو دعوةً صريحةً إلى الإيثار، أي دعوة إلى الأفراد المتآخين أن يفضل أحد الطرفين الطرف الآخر على الاستئثار بالمال أو نحوه. وهذا اللون من السلوك يؤدّي إلى التماسك الداخليّ الذي يقوّي لحمة المجتمع، ويمنحه

---

[١٤١] المكّي: قوت القلوب في معاملة المحبوب، ج٢، ص٢٢٠.

[١٤٢] الحلي، صفي الدين: ديوان صفي الدين الحلّي، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ٥٦٣.

www.mtenback.com

مقوّمات البناء الحضاريّ. بل إنّ القيم التي سادت في المجتمع الفاعل كانت أساس القوّة الفاتحة لقلوب الشعوب ثمّ بلدانهم. تلك القوّة التي لم تكن مجرّد قوّة عسكريّة غازية ممتلكة لمعطيات مادية جعلتها في مركز التفوّق، بل كانت تستمدّ حيويتها وهيمنتها من محتواها الأخلاقيّ الذي ينهل من معين الحكمة المحمّديّة الملهمة.

لقد كانت الأخلاق والقيم حريصةً على سيادة الانسجام الداخليّ في المجتمع. لذلك انطلقت من صلاح المكوّنات الفرديّة قبل كلّ شيء. فاتّجهت إلى تعميق الوشائج بين الأفراد الذين ينحدرون من مختلف الشرائح الاجتماعية المتفاوتة فقرًا وغنىً في محاولة فعليّة لإلغاء الفروق الاقتصادية التي يمكن أن تحدث مشكلة اجتماعية. وقد عمدت إلى الناحية التربويّة لتكون موطن حلّ المشكلة، واختارت الإيثار ليكون العلاج، لأن الإيثار لا يمحو تلك الفروق فحسب، بل يتخطّى تلك المرحلة إلى ماهو أعمق من ذلك فيستأصل من النفس كلّ آفة يمكن أن تعيق تحقيق علاقة اجتماعية إيجابيّة. يقول أبو طالب المكّي: «وإنّما آخى رسول الله ﷺ بين الغنيّ والفقير ليساوي الغنيُّ الفقير فيعتدلان. وينبغي أن يقدّمه على أهله وولده، وأن يحبّه فوق محبّتهم لأنّ محبّة أولئك من الدنيا والنفس والهوى، ومحبّة الإخوان من الآخرة»[١٤٣].

ولقد ولّدت هذه الحالة من الاندماج الاجتماعيّ الإيجابيّ نوعًا من العلاقات الأخلاقيّة الحميمة بين أفراد المجتمع. فلم يعد الإيثار ينطلق من طرف باتّجاه آخر بل صار متبادلاً بين الجميع لكون النظام الاجتماعيّ العام حصيلة العلاقات القائمة بين الأفراد، ولّما صار كلّ فرد يرى أنّ أخاه أفضل منه فيؤثره على نفسه؛ فمن هذا الباب قال أبو معاوية الأسود «إخواني كلّهم خيرٌ مني». ولما سُئل عن ذلك أجاب قائلاً: «كلُّهم يرى الفضل لي عليه، ومن فضّلني على نفسه فهو خيرٌ مني»[١٤٤].

---

[١٤٣] المكّي: ج٢، ص٢٢٠.

[١٤٤] المصدر السابق نفسه.

www.mtenback.com

هذه هي النتيجة الطبيعيّة لتلك المقدّمة الأخلاقيّة التي سعت إلى تكريس التآخي، والتعاون إلى أقصى حدٍّ يمكن أن تصل إليه أيّ نظريّة اجتماعيّة كما اتّجهت إلى بيان أنّ أيّ عملٍ لابدّ فيه من تضافر الجهود الجماعيّة، وأنّ المصالح العامّة التي تخصّ الجميع لا تتمّ إلاّ بذلك السبيل، حيث يعي كلّ فردٍ وظيفته الاجتماعيّة المنوطة به. وبذلك تتحقّق المنافع العامّة، وتنشط حركة الحياة، ويتوطّد النظام الذي ينضوي الجميع تحت لوائه للوصول إلى نموذج أفضل من نماذج الحياة الكريمة.

لقد كان المنطلق الأساسيّ لهذه الوحدة الاجتماعيّة النموذجيّة احترام النظام الذي حضّ على إيثار الآخر، ووجّه القيم الأخلاقيّة في هذا المسار الجوهريّ. لذلك فقد استجابت النفوس الحساسة، وأذعنت للتوجيهات الأريحية فقويت أواصر المودّة التي هي سبيل النجاح على كلّ صعيد. قال أحد الحكماء:

«المودّة والأخوّة سبب التآلف، والتآلف سبب القوّة، والقوّة حصن منيع وركن شديد، وبها يمنع الضيم، وتنال الرغائب، وتنجح المقاصد»[١٤٥]. وما ذلك إلاّ لأنّ الألفة توحيد لصفوف الأفراد وتقوية لعلاقاتهم، كما هي توطيد لحبّ رفيع يهذّب النفس، ويلمّ الشمل، وينهض بالمجتمع. تلك العاطفة التي تجذب القلوب إلى إيثار الآخر الذي هو مشارك في صنع الحياة للمجموع.

إنّ اليقين بضرورة النفع العام ومشاركة الناس فيه هو الذي حفّزهم على التحلّي بخلق الإيثار الذي هو أرفع درجات السخاء[١٤٦]. وهو الذي صعّد في نفوسهم الميل إلى تفضيل مصلحة الآخرين الذي يخرج عن إطار مصلحة الذات. وذلك بسبب امّحاء النظرة الشخصية التي تتمثل أبعادها في دائرة الذاتيّة المحدودة.

---

[١٤٥] الدجوي: إتمام فتح الخلاّق في مكارم الأخلاق، ص١٤٣.

[١٤٦] الكاشاني، الفيض: الحقائق في محاسن الأخلاق، ط٢، (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ١١٨.

www.mtenback.com

وترتبط جذور هذا التفضيل بالعقيدة الداعية إلى التراحم والتودّد من أجل خلق بيئة اجتماعيّة ذات مناخٍ نفسيٍّ إيجابيٍ يقضي على عوامل النفور والتمـــزّق. يقـــول القرطبي في توضيح البُعد المعنويّ للإيثار: «هو تقديم الغير على النفـــس وحظوظهـــا الدنيويّة، وعن ذلك تنشأ قوّة اليقين، وتوكيد المحبّة والصبر على المشقة»(١٤٧).

لقد ردّ القرطبُي ظاهرة الإيثار في المجتمع إلى ثلاثة عوامل نفســيّة أساســيّة: العامل الأوّل يتمثّل في قوّة اليقين الدافعة إلى الثقة المطلقة بالتعويض المعنـــوي. وأمّـــا العامل الثاني فيتجلّى في توكيد المحبّة التي تنشأ في قلب الفرد فتحفزه إلى التعاطف مـــع الآخرين والانضمام إلى المجموع من أجل تحقيق خيرٍ عام. وأمـــّا العامل الثالث الـــذي هو الصبر على المشقّة فهو ناجمٌ عن التضحية بالمصلحة الخاصّة ممّا يستدعي احتمـــال المكاره في سبيل خدمة تلك القيمة المرتبطة بالسخاء المطلق.

نرى هنا عمق الأثر التربويّ في تنمية قيمة الإيثار وفي ترسيخها في المجتمع حيث سعت هذه القيمة إلى تأكيد الأهمّيّة الحقيقيّة لتلك القيمة الأخلاقيّة الاجتماعيّة الـــتي تعدّت مصلحة الفرد لتخدم مصلحة الأمّة كلها.

البعد النفسيّ والأخلاقيّ لقيمة الإيثار:

قد يُستعمل مصطلح «الباعث» فيما يدفعنا إلى العمل، وقد يستعمل في الغايـــة التي تجذبنا إلى العمل. والذي يعنى به الباعث الأخلاقي أكبر عنايـــة هـــو البـــاعث الغائي(١٤٨).

قد يرى بعضهم أنّ اللذّة هي الباعث على العمل لأنها الغاية التي نرمي إليها من وراء ذلك العمل. ويرى آخرون أنّ الباعث على العمل قد يكون اللـــذّة، وقد يكـــون

---

(١٤٧) القرطبي، أبو عبدالله محمّد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبدالعليم الـــبردوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٦٦)، ص٢٦.

(١٤٨) أمين، أحمد: كتاب الأخلاق دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (١٩٧٤م)، ص٥٩.

www.mtenback.com

غيرها[١٤٩] والذين قالوا إنّ الباعث هو اللذّة اختلفوا؛ هل يبعث الإنسان على العمل لذّته الشخصيّة وحبّه لنفسه فقط وليس له باعث غير ذلك، أو قد يبعثه على العمل لذّة مصدرها حب الناس ومنفعتهم؟.

قال قوم بالمذهب الأوّل، أي أنّ الإنسان بطبيعته لا يبعثه على العمل إلاّ حبّه لنفسه وطلبه اللذّة لها، أي أنّه أثِرٌ (أنانيّ) لا يطلب إلاّ خير نفسه، وعمل الأخلاق هو إخضاع هذه الأثرة لتتّفق مع مصلحة الناس. وقيل: إنّ عمل الأخلاق هي الارتقاء بالنفس حتّى ترى أنّ لذّتها وخيرها في مراعاة لذّة الناس وخيرهم، وأنّه إذا انعدمت عند الإنسان المصلحة الذاتيّة فلن يوجد الباعث على العمل ونتيجة لذلك فلن يوجد العمل[١٥٠]. وفي هذا التفسير حطٌّ من شأن الإنسانيّة فضلاً عن أنّه بعيد من الصواب، فكثير من أعمال الناس لا يظهر أنّ الباعث عليها حبُّ الذات ككثير من أعمال الآباء والأمّهات نحو أولادهم، وكأعمال الخيّرين الذين يقصدون إلى إيصال الخير إلى الناس مهما نالهم من الأذى[١٥١].

ويرى آخرون: أن الإنسان بطبيعته قد يبعثه على العمل تحصيل لذّته وخيره، وقد يبعثه نفع الناس وخيرهم، فهو بطبيعته أثِر مؤثِر يبعثه على العمل هذا أحيانًا وذاك أحيانًا، وعمل الأخلاق تهذيب الناحيتين والتوفيق بينهما حتّى لا يتعارضا.

وقِيْل: إنَّ عمل الأخلاق إخضاع الأثرة لعاطفة الإيثار[١٥٢]. أي تغليب الشعور الغيريّ الذي يؤثر مصلحة المجموع على الشعور الذاتيّ الذي لا يرعى حقًا إلاّ للذات ويتركز حول «الأنا» ليحقّق مصالحها. إن الشعور المتنامي لدى المرء باتّجاه الغير هو

---

[١٤٩] أمين، أحمد: كتاب الأخلاق، ص٦٠.

[١٥٠] المصدر السابق نفسه.

[١٥١] المصدر السابق، ص٦١.

[١٥٢] المصدر السابق نفسه، ص ٦١.

www.mtenback.com

الذي يساعد على بناء المجتمع بناءً أخلاقيًا خاليًا من الأثرة الدافعة نحو التقوقع في حدود الذات. ويجعل الفرد حلقة في سلسلة اجتماعيّة متكاملة تحقّق خير المجموع بتكريس المشاركة المرتكزة على التعاون والتضامن المؤلّف بين جهود الأفراد. وقديمًا وضعت المبادئ الأخلاقيّة لمحاربة الأثرة والحضّ على الإيثار نحو: «عامل الناس بما تحبّ أن يعاملوك به» و«أحبّ لأخيك كما تحب لنفسك» و«اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»، وذلك لما رأوا من أنّ أكثر شرور هذا العالم ناشئ من الأثرة[١٥٣].

إنّ الأثرة أو ما يسمّى بحبّ الذات أمر مركوز في جبلّة الإنسان. وهو الذي يدفعه نحو تحقيق مصالحه بعد أن برز إلى هذا الوجود من أجل الحفاظ على كيانه الذاتيّ، واكتساب موقعه الذي يضمن له رتبته بين المكوّنات. ولكن هذا الشعور إذا طغى على ذات الإنسان أفقده الإحساس بحال الآخرين الذين يشكّلون بوجودهم إلى جانبه كيان المجتمع الإنسانيّ.

يقول سنتهلير في شرح مذهب أفلاطون: «إنّ أكبر شرٍّ في الإنسان هو عيب يرافقنا جميعًا منذ الولادة، وكلّ الناس يسامح نفسه فيه، ولهذا لا تجد من يبحث عن الخلاص منه، إنّهم يسمّونه الحبّ الذاتيّ، ولاشكّ في أنّ لهذا الحبّ الذاتيّ بعض المحلّ من الحقّ، بل من الضرورة، لأن الطبيعة هي التي ركّبته فينا[١٥٤]، ولكن ذلك لا يمنع أنّه متى أفرط فيه صار العلّة العاديّة لجميع خطايانا. وقد يتعامى الإنسان بغاية السهولة عمّا يحب، فقد يسيء الحكم على ماهو حقّ وطيّب وجميل متى ظنّ واجبًا عليه أن يفضّل منافعه على منافع الحقّ، فأيّما إنسان شاء أن يكون رجلاً عظيمًا لا ينبغي له أن

---

[١٥٣] أمين، أحمد: كتاب الأخلاق، ص ٦١. ويلاحظ أن بعض هذه المبادئ الأخلاقية هي نصوص إسلامية من الحديث الشريف.

[١٥٤] أي من فطرة الخلق، وإن كان إفلاطون لا يرى تأثيرًا إلا للطبيعة، لا لمسيِّر الطبيعة وخالقها سبحانه وتعالى.

www.mtenback.com

يحبّ ذاته ولا ماهو له، لا ينبغي أن يحبّ إلاّ الخير سواء في نفسه أو في غيره، وإلاّ وقع من سلوكه في ألف خطيئة لا يمكن اجتنابها[١٥٥].

فالإيثارَ إذن فضيلة أخلاقيّة عظيمة تنمّي في النفس إرادة الخير الجماعيّ الذي ينتج عنه التطور العام في الاتجاه الإيجابيّ. وهو الذي يتولد عنه الشعور باللّذة لدى تحقيق هذا النوع من الخير. وقد أوضح بعض علماء النفس الفرق بين الأثرة والإيثار، فقال: إنّ كلّ عملٍ يُعْمَل إنّما يُعْمَل بناءٍ على غريزة من غرائز الإنسان، وبعبارة أخرى: إنّ الباعث هو الغريزة. وكلّ عملٍ يُعمَل إجابةً لطلب غريزة يشعر الشخص بلذّة منه إذا حصل. ويعدّ العمل إيثاراً إذا كان العامل يجد لذّته في عمل الخير للناس، أمّا إن كان يجد لذّته في عمل فعلٍ لنفسه فذلك أثرة، فمثلاً الطبيب الذي تكون عنده غريزة لفت الناس إليه والإعجاب به، يكون من الخير له لو وجه أعماله لإيصال الخير للناس بمعالجة المرضى والعناية بهم، فإن ثناء الناس وإعجابهم بمستوى خدمته سيبلغه، وسيضاعف من التفاف الناس حوله وإقبالهم عليه، وهو في الوقت نفسه يكون مؤثراً للمستفيدين من خدمته، فيتحقق له الرغبة الذاتية، وفضل الإيثار معًا، فليس الإيثار يعتمد دائمًا على إيلام النفس والتضحية بلذائذها بل يعتمد على الغاية التي تريد تحصيلها[١٥٦].

وإذا كان الهدف من العمل سعادة الآخرين فقد تحقّق الإيثار ولو رافق ذلك إحساس باللذّة، وإن كانت الغاية تحقيق خير ذاتيّ فإنّ ذلك يؤدّي إلى الأثرة المرتبطة بالمصلحة الفرديّة. وهذا هو الفرق النفسيّ بين الأثرة والإيثار. «فإذا عملتُ العمل

---

[١٥٥] أمين، أحمد: كتاب الأخلاق، ص ٦١، نقلاً عن مقدمة كتاب الأخلاق لأرسطو، ترجمة لطفي السيّد، الجزء الأول، ص ٦٦.

[١٥٦] المصدر السابق، ص٦٢.

www.mtenback.com

قاصداً منه إسعاد الناس فذلك إيثار ولو تلذّذت من عمله، وإذا عملته قاصداً إسعاد نفسي فذلك أثرة»[١٥٧].

وبذلك يتبيّن لنا أنّ الدافع الذاتيّ أو الغيريّ هو المقياس الذي يحصل بموجبه التمايز بين لونين من السلوك أحدهما يتّجه بخيره إلى الذات، والثاني يتعدّاها إلى الآخر الذي يشكّل بالتعاون معه الكيان الاجتماعيّ الشامل.

فعلم الأخلاق يهدف إلى استقامة المرء في قصده وفعله. والغاية من علم الأخلاق أن يوجد مجتمعاً يسود فيه العدل والأمن والتعاون على صيانة الحياة من الفساد والمظالم، ومن كلّ ما يشقيها ويرهقها، كما يهدف إلى السير بها إلى الأكمل والأفضل[١٥٨]. وهذا يتطلّب العناية بالفرد والجماعة معاً. لأن الفرد هو نواة المجتمع الأكبر، والصلاح العام مرتبط بصلاح هذه النواة الصغرى التي لا يمكن تجاهل أهمّيتها في بناء المجتمعات.

ولو أردنا معرفة مدى أيّ تقدّم أحرزته أمّة من الأمم علينا أن ننظر إلى الفرد في تلك الأمّة. فإذا كان يتمتّع بالوصف الخلقيّ الاجتماعيّ الصحيح فهو ابن أمّته، وسلوكه الحضاري يعكس حضارة أمته، وإن كان عكس ذلك فربما كان ابن مجتمع فاسد مهما كانت الصورة الاجتماعيّة البرّاقة التي يبدو من خلالها ذلك المجتمع.

وإذا كان الدافع النفسيّ هو الذي يحدّد نمط السلوك سواء أكان إيثاراً أم خلاف ذلك، فإن المحبّة تعدّ من أهمّ الدوافع الداخليّة التي توجّه السلوك باتّجاه الإيثار. فإذا استقرّت المحبّة في القلب استدعت من المحبّ إيثار محبوبه على غيره، وما هذا الإيثار إلا علامة ثبوتها وصحّتها فإذا آثر غير المحبوب لم يكن محبّاً له[١٥٩]. وذلك لأن المحبّ

---

[١٥٧] أمين، أحمد: كتاب الأخلاق، ص٦٢.

[١٥٨] مغنيّة، محمّد جواد: فلسفة الأخلاق في الإسلام، دار العلم للملايين، ص١٣.

[١٥٩] ابن قيّم الجوزيّة، شمس الديم محمّد بن أبي بكر: طريق الهجرتين وباب السعادتين، تصحيح وإخراج: محبّ الدين الخطيب، المطبعة السلفيّة، القاهرة، (١٣٧٥هـ)، ص٢٩٧.

www.mtenback.com

عندما يكون حبّه خالصًا صافيًا من الشوائب والمكدرات الباطنة، فإنّه يتنازل عن حظوظه النفسيّة ولذائذه الخاصة في سبيل موافقة إرادة محبوبه. ومن هنا رأى صاحب (طريق الهجرتين) أنّ إيثار المحبوب نوعان: إيثار مفاوضة ومتاجرة، وإيثار حبٍّ وإرادة. فالأوّل: يؤثر محبوبه على غيره طلبًا لحظه منه، فهو يبذل ما يؤثره ليعادضده بخيرٍ منه والثاني: يؤثره إجابةً لداعي محبّيه، فإنّ المحبّة الصادقة تدعوه دائمًا إلى إيثار محبوبه، فإيثاره هو من أجلّ حظوظه فحظّه في نفس الإيثار لا في العوض المطلوب بالإيثار، وهذا لا تفهمه إلا النفس اللطيفة الورعة المشرقة[١٦٠].

هذا اللون من الإيثار هو الذي ساد في المجتمع العربيّ المسلم وجعل أفراده يقدّمون من النماذج الجليلة ما تعجز عنه معظم المجتمعات الحضاريّة على مدى الأجيال. والسبب في ذلك هو التهذيب النفسيّ الذي أورثه حال المحبّة في القلب فجعل أولئك الأفراد يؤثرون الحقّ، وبالتالي يؤثرون الخير الذي يتجاوز البعد الشخصيّ لينال المجتمع بأكمله. بل إنّهم اشترطوا في خِلال الصديق أن يكون محمود الأخلاق، مرضيّ الفعال، مؤثرًا للخير، آمرًا به[١٦١].

وقد مرّ في مقدمة البحث تمييز بعض العلماء بين ألوان العطاء وصنّفوها في مراتب ثلاث: أوّلها السخاء: وهو أن يعطي المرء بعض ما عنده ويبقي البعض الآخر، وثانيها الجود: وهو أن يعطي المرء الأكثر ويبقي لنفسه الأقلّ، وثالثها الإيثار: وهو أعلاها لارتباطه بالحاجة. وفي ذلك يقول القشيري[١٦٢]: «والذي قاسى الضرر وآثر

---

[١٦٠] ابن قيم الجوزيّة: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٢٩٨.

[١٦١] جاد المولى، محمّد أحمد: الخلق الكامل، المطبعة العثمانية المصرية، ط١ (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م)، ج٣، ص٢٣٥.

[١٦٢] بدوي، عبدالرحمن: الأخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت، ط٢، (١٩٧٦م)، ص٢١٩. نقلاً عن الرسالة القشيرية، القاهرة، (١٩٥٩م)، ص١٢٣.

www.mtenback.com

غيره بالبُلغة فهو صاحب إيثار»، «وعندما يجود المرء حتىّ بما يكون في مسيس الحاجة إليه فذلك الإيثار»[١٦٣].

وقد توقّف «جنكليفتش» عند المعاني الدقيقة للسخاء الذي تطفح به النفس المعطاءة الكريمة، ففرّق بين سخاء تجريبيّ أو طبيعي وبين السخاء حين يختلط بالإحسان؛ فأمّا السخاء التجريبيّ فيعمل بالخلوّ من الأغراض أكثر ممّا يعمل بإيجابيّة النيّة ولا نهائيّة الموارد، فالطبيعة الثريّة إذا كانت عندها حيويّة تعطيها وتغذيها، طفحت مثل الإناء المفرط الامتلاء. ولا يعد ذلك سخاء عندما يعطي الإنسان مما هو فائض عنده وزائد عن حاجته لكن الإيثار الحقيقي عندما يعطي الإنسان ما هو بحاجة إليه ويؤثر غيره على نفسه. وهو المعنى المقصود من الآية الكريمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[١٦٤].

فعامل المحبّة هو الفيصل الأساسيّ بين الإيثار وبين سائر ألوان العطاء الذي يمكن أن تجود به النفس، أو يسمح به الضمير. فالتضحية بمكتسبات الذات في سبيل إسعاد الآخرين مثلاً لا يمكن أن تتحقّق بسهولة إلا إذا اقترنت بالدافع المحرّض الذي يحرّك النفس باتّجاه البذل المطلق الذي يتمرّد على شروط توافر إمكانيّات العطاء لدى المؤثِر.

ولكن إذا كان الإيثار الذي هو اختصاص الغير بما يريده المرء لنفسه، يقتضي ذلك الجهد النفسيّ، فهناك أمور متعدّدة تسهّل ذلك التنازل عن حقوق الذات تكريمًا للآخر. وقد أشار إلى ذلك ابن قيم الجوزيّة في كتابه (طريق الهجرتين) فذكر أنّ أوّل

---

[١٦٣] بدوي: عبد الرحمن، الأخلاق النظريّة، ص٢٢٠.

[١٦٤] آل شبير الخاقاني، محمّد محمّد طاهر: علم الأخلاق «النظريّة والتطبيق»، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، (١٩٨٧م)، ص٨٠. والآية رقم ٩ من سورة الحشر.

www.mtenback.com

تلك الأمور: رغبة المرء في مكارم الأخلاق ومعاليها. وبيّن أنّ أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار، وأنّ الله قد جبل القلوب على تعظيم صاحبه ومحبّته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته. فالأخلاق لديه ثلاثة: خلق «الإيثار»: وهو خلق الفضل. وخلق «القسمة والتسوية» وهو خلق العدل. وخلق «الاستئثار والاستبداد» وهو خلق الظلم. وصاحب الإيثار محبوب مطاع مهيب، أمّا صاحب العدل فلا سبيل للنفوس إلى أذاه والتسلط عليه، ولكنها لا تنقاد إليه انقيادها لمن يؤثرها، وأمّا صاحب الاستئثار فالنفوسُ إلى أذاه والتسلط عليه أسرع من السيل في حدوره[١٦٥]. وأمّا الداعي الذي يسهّل الإيثار فهو النفرة من أخلاق اللئام، ومقت الشحّ[١٦٦] الذي هو باب الرذائل النفسيّة. كما أنّ من الدواعي أيضًا تعظيم الحقوق التي جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعضهم على بعض. فالفرد المسلم يدفعه الخوف من تضييع الحقّ والدخول في الظلم إلى الإيثار بما لاينقصه ولا يضرّه ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه له الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه من إيثاره أفضل ممّا بذله[١٦٧].

وهناك العديد من القصص الرائعة التي تتحدّث عن فضائل الأجواد من السلف وثقتهم بالله في حسن الخلف. ومن ذلك ما حدّث به (أبو الحسن المدائني) قال: خرج الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر رضي الله عنهم، حجّاجًا، فسبقتهم القافلة، وفاتهم أثقالهم، فجاعوا فمرّوا بعجوز في خبائها: فقالوا لها: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا بها، وليس لها إلا شويهة واحدة، فقامت: وحلبت الشاة، وأتتهم بلبنها، فشربوا فقالوا: هل من طعامٍ تحيينا به ؟ فقالت: أذنت لكم أن تذبحوا هذه الشاة فما

---

[١٦٥] ابن قيم الجوزيّة: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣٠٠.

[١٦٦] المصدر السابق نفسه.

[١٦٧] المصدر السابق، ص٣٠١.

www.mtenback.com

عندي سواها، فقام إليها أحدهم فذبحها وقطّعها، فهيّأت لهم العجوز منها طعامًا، فأكلوا، وأقاموا حتىّ أبردوا. فلمّا ارتحلوا، قالوا لها:إنّا قوم من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا لمّي بنا فإنّا صانعون لك خيرًا - إن شاء الله - ثمّ ارتحلوا. وجاء زوج المرأة، فأخبرته خبر القوم، وما قالوا لها، فغضب، وقال: ويحك ! أتذبحين شاةً ما لنا سواها لقومٍ لم نعرفهم ؟. ثمّ بعد مدّة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها وجعلا يبيعان البَعَر ويعيشان بثمنه، فمرت العجوز في بعض طرق المدينة، وإذا «الحسن» على باب داره، فعرف العجوز، و لم تعرفه، فبعث إليها غلامه فدعاها إليه، فقال لها: يا أَمَة الله هل تعرفينني ؟.

قالت: لا !

قال: أنا أحد ضيوفك يوم صنعت الشاة.

قالت: بأبي أنت وأميّ.

فأمر أن يشتري لها من غنم الصدقة ألف شاة، وأمر لها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى أخيه «الحسين» فدفع لها ألف شاة وألف دينار، ثمّ بعث بها إلى «عبدالله بن جعفر» فقال: بكم وصلك «الحسن والحسين»؟

قالت: بألفي شاة وألفي دينار.

قال: لو بدأت بي لأتعبتهما، ثمّ دفع لها ألفي شاة وألفي دينار، فرجعت العجوز لزوجها بالمال والأغنام[١٦٨].

إنّ هذه القصة هي واحدة من بين كثير من الحكايات التي تظهر نتائج الإيثار، وما يعود به من الجزاء الحسن والخير العميم. فهو وإن اقترن في البدء بالحرمان إلا أنّ له

---

[١٦٨] المقّري، أبو عبد الله شمس الدين محمّد بن أحمد: المختار من نوادر الأخبار، تحقيق: أنور أبو سليم، دار عمّار، مؤسسة الرسالة. بيروت، ط٣، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٦٦. نقلاً عن «ثمرات الأوراق»، للحموي، ص٢٤.

www.mtenback.com

نتائج كبيرة على صعيد الحياة سواء في المرحلة الدنيويّة أم في المرحلة الثانية عندما تتوّج الأعمال بخواتيمها. فالمرأة العربية المؤثرة لا تملك إلا شاة فقدمتها وآثرت بها من لا تعرفه ولا ترجو عطاءه أو مكافأته، والجزاء عليها جاء غير متوقع ولا مطلوب ولكنه عاقبة حميدة للإيثار.

والإحساس بالعدالة الإلهيّة، وفضلها الإحسانيّ هو الذي دفع أفراد المجتمع العربي إلى إيثار الألم على اللّذة المحرّمة الداعية إلى الانحدار الخلقيّ والانحطاط النفسيّ. ومن أمثلة ذلك ما نقله صاحب «روضة المحبّين» تحت عنوان: من آثر عاجل العقوبة والآلام، على لذّة الوصال الحرام . ويجدر بنا أن نتوقّف عند إحداها لنتبيّن مدى العمق التربويّ لدى أولئك الناس الذين زكت نفوسهم فأدركت في فتنة الموقف الحقيقة الساطعة فآثرت الحرمان على المكتسبات الفانية. ومن تلك المواقف الجليلة تضحية (عاتكة المرّية) بلذّتها وإيثارها للصبر المؤلم على عاجل اللّذة قائلة[١٦٩]:

فَمَا طَعْمُ مَاءٍ مِنْ سَحَابٍ مُرَوَّقٍ ... تَحَدَّرَ مِنْ غُرٍّ طِوَالِ الذَّوَائِبِ
بِمُنْعَرَجٍ أَوْ بَطْنِ وَادٍ تَطَلَّعَتْ ... عَلَيْهِ رِيَاحُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
تَرَقْرَقَ مَاءُ الْمُزْنِ فِيهِنَّ وَالْتَقَتْ ... عَلَيْهِنَّ أَنْفَاسُ الرِّيَاضِ الْغَرَائِبِ
نَفَتْ جِرِّيَةُ الْمَاءِ الْقَذَى عَنْ مُتُونِهِ ... فَلَيْسَ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَارِبِ
بِأَطْيَبَ مِمَّا يَقْصُرُ الطَّرْفُ دُونَهُ ... تُقَى اللهِ وَاسْتِحْيَاءَ تِلْكَ الْعَوَاقِبِ

هذا الإيثار له مرتكزاته النفسيّة العميقة التي تنبثق من الاعتقاد بأنّ من خرج عن رغبته من أجل خالقه القيّوم على شأنه، أعاضه الله ماهو أجلّ من ذلك، وأنالـه من بركة الإيثار خيرًا.

---

[١٦٩] ابن قيم الجوزيّة: روضة المحبّين ونزهة المشتاقين، دار الكتب العلميّة، بيروت، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص٤٦٨.

www.mtenback.com

وهذا النمط من السلوك الإيثاريّ يذكّرنا بالموقف الصعب الذي واجهه يوسف الصدّيق «عليه السلام» حين اختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام[١٧٠]. فقد كان عنده خلق الإباء والشمم، وشرفُ نفسه وطهارتها آثر لديه من الخروج من السجن[١٧١] لذا فضل السجن على الفاحشة، ثمّ تبرّأ إلى الله من حوله وقوّته[١٧٢].

فكان بذلك نموذجًا يحتذى في الصبر وإيثار المتعة الفانية على اللذة الدائمة.

ولو تأملنا هذا السلوك لتبيّن لنا أنّ مصدره إيثار الخالق، فيوسف عليه السلام فعل ما فعل إكرامًا لوجه بارئه الذي منّ عليه بنعمة الجمال، وصوّره أحسن تصوير، فكانت منه الإجابة بالطاعة وإيثار حبّه على حبّ سواه. وتولّد لديه من ذلك الحصانة الخلقيّة المنيعة تجاه ما يعترضها من المغريات وتحدّيات الفساد، لذلك فإنّ علامة هذا الإيثار شيئان: أحدهما: فعل ما يحب الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه. والثاني: ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبّه وتهواه، فبهذين الأمرين يصحّ مقام الإيثار[١٧٣].

وهذا النوع من الإيثار تتعرّض فيه النفس لفتنة عظيمة يمكن أن تزلزل كيانها وذلك لغلبة طباعها، وتموّجات هواها، ذلك الهوى الذي يتسلّط عليها فتضعف أمام جبروته، وهنا تبرز عظمة هذا الإيثار في هذا المقام الخطير الذي تخرج منه تلك النفس بإشارات النجاح الذي تخطى عقبات الامتحان العسير.

ومن الأسباب الميسّرة لتحقيق هذا الإيثار:

---

[١٧٠] ابن قيم الجوزيّة: روضة المحبّين ونزهة المشتاقين، ص٤٥٩.

[١٧١] النجّار، عبدالوهاب: قصص الأنبياء، تحقيق: عبدالله بدران، علي عبدالحميد بلطه جي، دار الخير، ط١، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص١٨٢.

[١٧٢] ابن قيم الجوزيّة: روضة المحبّين ونزهة المشتاقين، ص٤٥٩.

[١٧٣] ابن قيّم الجوزيّة: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣٠١.

www.mtenback.com

أن تكون طبيعة المرء ليّنة منقادة سلسة، ليست بجافية ولا قاسية، بل تنقاد معه بسهولة[١٧٤]. وهذا اللين يورث لديها الطواعية فتنجذب إلى الحقّ، وتذعن إلى ندائه.

ثمّ أن يكون إيمان هذا المرء راسخًا ويقينه قويًّا[١٧٥]. وقوّة يقينه منوطة بعمق الإيمان الذي يتقدّم في الأهمّيّة على سائر الأمور المؤدّية إلى بناء الشخصيّة بناءً أخلاقيًّا صحيحًا. ويُعَدُّ الصبر والثبات من متطلبات تيسير الإيثار. وذلك لأنه يمكّن النفس من تجاوز ضعفها وينهض همّتها إلى الإيجاب الموجب لتقديرها.

ويمكن أن تعجز النفس عن إدراك هذا المقام العظيم لأمرين:

أحدهما: أن تكون جامدة غير سريعة الإدراك، بل بطيئة ولا تكاد ترى حقيقة الشيء إلا بعد عسر[١٧٦]، وإن تمكّنت من ذلك فإنّ رؤيتها تظلّ مشوبةً بالأوهام والشبهات.

والآخر: أن تكون القريحة وقّادة الإدراك، لكن النفس ضعيفة مهينة إذا أبصرت الحقّ والرشد ضعفت عن إيثاره. فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض، كلّما ساقه خطوة وقف خطوة، أو كَسَوْق الطفل الصغير الّذي تعلّقت نفسه بشهواته ومألوفاته فهو يسوقه إلى رشده وهو ملتفت إلى هوه ولعبه لا ينساق معه إلا كرهًا[١٧٧].

وإذا وصلت النفس إلى تلك الدرجة من الضعف الموجب للانحطاط، فإنّها تصعب قيادتها في الاتّجاه الصحيح ويصبح توجيهها عسيرًا. لذلك ينبغي أن يتعهّدها المرء بالرعاية الكافية التي تستوعب طاقاتها وتهذّب طباعها فتنقاد إلى رشدها وتنسجم قواها مع الإمكانيّات الإيجابيّة المنبثقة عن القريحة الوقّادة.

---

(١٧٤) ابن قيّم الجوزيّة: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣٠١.

(١٧٥) المرجع السابق نفسه.

(١٧٦) المرجع السابق نفسه.

(١٧٧) المرجع السابق، ص ٣٠٢.

www.mtenback.com

ويرى ابن قيّم الجوزيّة أنّ القريحة الوقّادة والطبيعة المنقادة بالإضافة إلى العلم النافع والإيمان الراسخ العميق، يرى أن هذه الأمور مجتمعةً هي التي يمكن أن تحقّق للمرء السعادة التي ينشدها. وهذه القوى بمجملها هي التي تصنع كمال سلوك الإنسان، وتزكّي خلق الإيثار لديه وتدفعه إلى زيادة حرصه على مشاركة الآخرين له ومواساته لهم.

والإيثار هو القيمة البنّاءة التي تندرج ضمن الآداب الاجتماعيّة الحضاريّة بل هو العصب الأساسيّ للبنية الأخلاقيّة، لأنّه يحمل في ذاته غاية الرقيّ الذي يمكن أن تحقّقه النفس الإنسانية بما ينبثق عنه من نتائج اجتماعيّة إيجابيّة. ومن هنا كان الدعاة إلى الأخلاق يعدّون الإيثار من الأمور الرئيسة التي يقتضيها أدب الصحبة وحُسن العشْرة. وفي ذلك يقول بدرالدين الغزّي مشيراً إلى آداب المرء الاجتماعيّة: «ومنها إيثار الإخوان بالكرامة على نفسه»[178] ويستشهد على ذلك بالرأي القائل: «مَنْ عَاشر الناس و لم يكرمْهُم، وتكبّر عليهم، فذلك لقلّة رأيه وعقله؛ فإنّه يعادي صديقه ويكرمُ عدوّه، فإنّ إخوانَه أصدقاؤه، ونفسه عدوُّه»[179].

فإيثار الصديق أمرٌ محمودٌ لأنّه يقوّي العلاقة الاجتماعيّة، ويخرج المرء من الإطار الفرديّ الضيّق إلى نطاق أوسع يشمل سائر أفراد المجتمع. كلّ هذا يتمّ تحت مظلّة المحبّة التي تؤكّد إنسانيّة تلك العلاقة المنزّهة عن المصلحة والداعية إلى المودّة العميقة بين الناس. وإذا استطاع المرء أن ينجح في بناء روابط اجتماعيّة وطيدة فإنّه بذلك يكون قد عقد الصداقة مع من تجب صداقتهم لخروجه عن هواه الذاتيّ الذي يدعوه إلى الأنانية والأثرة. وهذا الهوى من دواعي النفس الطالبة للمخالفة، وممارسة الرغبات

---

[178] الغزّي، أبو البركات بدر الدين محمّد: آداب العُشرة وذِكر الصحبة والأخوّة، تحقيق: د. عمر موسى باشا، (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص٣٣.

[179] المصدر السابق نفسه.

www.mtenback.com

الذاتيّة بعيداً عن الإحساس بالآخرين وبحاجاتهم المتنوّعة. وعندما يتمكّن من كبح جماح تلك النفس التي تميل إلى الاستئثار يكون قد تخلّص من استعبادها واستبدادها القاهر. وذلك لأنّ الاستئثار ناجم عن الطمع، والطمع رقٌّ مؤبّدٌ[١٨٠] كما يقول عليّ ابن أبي طالب «رضي الله عنه». وقيمة الإيثار هي القوّة القادرة على إنقاذ النفس من مهاوي الأثرة والطمع لتعمّق الشعور الإنسانيّ الذي هو مصدر الخير المتجّه إلى الآخرين في الوقت الذي يفتقر فيه المؤثِر إلى ما يعطيه[١٨١]:

وَإِنِّي لأَطْوِي الجُوعَ حَتَّى تَمَلَّنِي ... حَيَاتِي وَلَمْ تُدْنِسْ ثِيَابِي وَلاَ جِسْمِي

أَرُدُّ شُجَاعَ الجُوْعِ قَدْ تَعْلَمِينَهُ ... وَأُوثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِكِ بِالطُّعْمِ

مَخَافَةَ أَنْ أَحْيَا بِرَغْمٍ وَذِلَّةٍ ... وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رَغْمِ

فالنفس الكريمة تأبى الأنانية وتتطلّع إلى أخلاق الكِرام التي تنبع من يقظة القلب ووعي الضمير.

ولشدّة عناية العرب بالإيثار صار لهم في ذلك أروع الأمثال المعنيّة بهذا الخلق الرفيع، ومن ذلك قولهم: «لك ما أبكي ولا عَبْرَة بي»[١٨٢] وفي تفسير ذلك قالوا: «معناه أبكي من أجلك، ولا حزن بي في خاصّة نفسي»[١٨٣] وفي هذا دلالة خلقيّة عميقة على التعاطف الإنساني العميق بين أفراد المجتمع الذين ساد بينهم الإيثار، فقامت بينهم أجمل العلاقات الإنسانيّة التي تعكس الانسجام الاجتماعيّ، كما تعكس المستوى الأخلاقيّ الرفيع الذي ارتقى إليه المجتمع العربيّ.

---

[١٨٠] ناصيف، إميل: أروع ما قيل في الحكمة، ط١، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، دار الجيل بيروت، ص١١٩.

[١٨١] البكري، أبو عبيد: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عبّاس، وعبد المجيد عابدين، ط٣، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، دار الأمانة، مؤسّسة الرسالة. بيروت، لبنان، ص٢٦٠.

[١٨٢] المصدر السابق، ص ٢٥٩.

[١٨٣] المصدر السابق نفسه.

www.mtenback.com

إن سعادة الأفراد ورقيّ الأمم إنّما هو منوط بعلومها الحقّة والعمل على مقتضاها. وظاهرٌ أنّ العمل لا يعظم شأنه وينتج السعادة العامّة والقوّة الشاملة إلاّ إذا اتّحدت فيه وجهات النظر، واجتمعت عليه الأيدي، وحفظت حقوق الأفراد وعرف كلٌّ واحدٍ ماهو منوط به بالنسبة لأبناء أمّته من واجب الإخاء والمعاضدة والصدق في المعاملة إلى غير ذلك من الأعمال والأخلاق الفاضلة المؤدّية إلى التحابّ وحفظ سياج المجتمع الإنسانيّ[١٨٤].

ولعلّ الإيثار من أهمّ تلك القيم الأخلاقيّة التي يمكن أن تقوّي لحمة المجتمع، إنْ لم يكن رأسها. إنّ عظمة الإيثار تتمثّل في تقديم الآخرين على الذات. وهذا التقديم على حساب النفس لا يكون إلاّ عند ارتقاء تلك النفس إلى غاية الكرم وغاية التضحية. وتحقيق ذلك الارتقاء ليس بالأمر الهيّن، بل إنّه لممّا يشقّ على النفس القيام به؛ وذلك لشدّة نظرها إلى ذاتها – كما ذكرنا – ممّا يجعلها في غاية العناء إذا خالفت هواها.

إنّ الجهد الشاقّ الذي تكابده النفس لدى ممارسة هذا الفعل الأخلاقيّ، هو الذي جعل الناس على مرّ الأجيال يجلّون المؤثر، ويقومون له بالمدح والثناء. فهو الذي يظمأ ليشرب الآخر، ويعرى ليلبس غيره، ويجوع ليأكل المحتاج، بل يموت ليحيا الرفيق. ولعلّ هذه التضحية العظيمة هي التي هزّت نفس شاعرنا «خليل مردم» فراح يتساءل[١٨٥]:

مَنْ «كَابْنِ مَامَةَ» إِيثَارًا لِصَاحِبِهِ ... يُعَالِجُ الْمَوْتَ فِي الإِيثَارِ مُصْطَبِرًا؟
يَقُولُ وَهْوَ عَلَى وَرْدِ الرَّدَى ظَمِئٌ ... مِنْ حَيْثُ صَاحِبُهُ رَيَّانُ قَدْ صَدَرَا

---

[١٨٤] محمّد، سلطان: الفلسفة العربية والأخلاق، ج٢، ص ٨٦.

[١٨٥] مردم، خليل: ديوان خليل مردم، مطبوعات المجمع العلمي، دمشق، (١٣٣٩هـ)، ص ٢٣٨.

www.mtenback.com

لَوْ أَعْوَزَ الْمَاءُ أَصْحَـــابِي سَـــقَيْتُهُمُ دَمِيْ وَلَسْتُ عَلَى العِـــلاَّتِ مُعْتَـــذِرَا

فلقد أدرك جلالة تلك المواقف الانسانيّة التي سجّلها تاريخ العرب، والتي أعرب عن كرم نفوسهم وطيب شمائلهم[١٨٦]:

المُؤْثِرُونَ وَلَوْ أَعْيَـــتْ خَصَـــاصَتُهُمْ وَالْحَافِظُونَ إِذَا مَا غَـــيْرُهُمْ غَـــدَرَا

إنّ هذه المواقف الجليلة هي التي تمنح المجتمع مقوّمات النجاح المبشّرة بإشراقات البناء الأخلاقيّ السليم. والبناء الأخلاقيّ السليم يستمدُّ قيمته من ارتكازه إلى مكـــارم الأخلاق التي هي عموده وأساسه، والتي تحرّر ذات الفرد من الأنانية المقيتـــة، ومـــن الرذائل الموجبة للفساد الاجتماعيّ. ومن هنا كان القائمون علـــى شـــؤون التربيـــة والأخلاق يولون الأهمية الكبرى لتلك القضايا السامية.

لقد أحسّ هؤلاء بخطورة غياب القيم من المجتمع، وما يترتّب على ذلـــك مـــن الانشقاق والتصدّع الاجتماعيّ الذي ينتهي إلى التفكّك والدمار. وانطلاقًا من إيمـــانهم بأهمية الأخلاق في بناء المجتمعات اتّجهوا إلى الحضّ على التمسّك بها ودعوا إلى تعهّـــد النفوس بالتربية والتهذيب حتّى تكون نتائج أعمالها ذات آثـــار إيجابيّـــة في البنيـــان الاجتماعيّ. وممّا لا شكّ فيه أنّ الإيثار كان في مقدّمة تلك القيم التي حرصـــوا علـــى العناية بها والدعوة إليها إلى جانب العلوم المثقّفة للنفس، والمهذّبة للضمـــير، في هـــذا المعنى يقول الشاعر[١٨٧]:

إِذَا لَمْ نُشِدْ بِالعِلْمِ صَـــرْحَ فَخَارِنَـــا وَبِالْعَزْمِ وَالإِيثَارِ فَاسْـــتَعظِمِ الذَّنْبَـــا

---

[١٨٦] مردم: يوانه ص ٢٣٨.

[١٨٧] يحيى، عمر: ديوان عمر يحيى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، (١٩٨٠م)، ج ١، ص٢٧٤.

www.mtenback.com

ومن أجمل صور الإيثار تلك اللوحة الرمزيّة الشفّافة التي صوّر فيها عمر أبو ريشة عظمة المؤثِر المتمثّلة في شخص الأمّ التي قدّمت رضيعها على ذاتها وآثرته بالحياة[١٨٨]:

كَمْ ظَبْيَةٍ قَعَدَتْ بِعِبْءِ جِرَاحِهَا تَتَوَجَّعُ
لَمَّا رَأَتْ فِي خَشْفِهَا الْـ جُوعَ المُلِحَّ يُرَوِّعُ
زَحَفَتْ لِتُرْضِعَهُ، وَمَا تُتْ وَهُوَ بَاقٍ يَرْضَعُ!

إنّ الإيثار قيمة تنطوي على قوّة نفسيّة ذاتيّة تتمتّع بإرادة الخير التي هي أساس كلّ فضيلة. وهو من محرّكات العزيمة الإنسانيّة في اتّجاه الصعود الخلقيّ المتسامي الذي ينهض بالفرد والمجتمع في وقت واحد. ولهذا فهو ذو صبغة اجتماعيّة تجاوز حدود الذات لتصبّ في أوسع الدوائر المحيطة بالفرد.

وفي سكون النفس الإنسانيّة للقيم دلالة على انتعاشها بالشوق إلى الكمال الخلقي الذي هو مصدر الطمأنينة والعدل، وموئل الخير في هذا الوجود. ولقد ظلّ هذا النقش الأوّل يصارع أهواءها، وينازع رغباتها الجامحة حتّى أعادها إلى فطرتها في الإيثار.

[١٨٨] أبو ريشة، عمر: ديوان عمر أبوريشة، دار العودة، (١٩٦٦م)، ص ١٣٩.

www.mtenback.com

الفهارس

موقع الدكتور مرعي بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
البقرة	﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ... الآية﴾	٢٧٢	١٠
المائدة	﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى... الآية﴾	٢	١٣
يوسف	﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا... الآية﴾	٩١	٧
طه	﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا... الآية﴾	٧٢	١٣
الحشر	﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ... الآية﴾	٩	٩
	﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ... الآية﴾	٩	١٢
	﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ... الآية﴾	٩	٧٠
الإنسان	﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ... الآية﴾	٨–٩	٣٦

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«... أتأذن لي أن أعطي هؤلاء ...»	١٥
«أراد النبي ﷺ أن يقطع من البحرين ...»	١٤
«إن الله عز وجل قد أوجب لها ...»	١٧
«سترون بعدي أثرةً»	٨
«.. السفل أرفق بي ...»	١٥
«قدم علينا عبد الرحمن بن عوف ...»	٤١
«لا يؤمن أحدكم حتى يحب ...»	١٤
«لعل أحدكم أن يكون ألحن بحجّته ...»	٣٩
«ما أبقيت لأهلك ...»	٤٥
«ما أنتما بأقوى على المشي منّي ...»	١٦
«من يضيف هذا الليلة رحمه الله ...»	١٦
«نحري دون نحرك يارسول الله»	١٤

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأشعار

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـــ ء ـــ		
ليس	العطاءِ	–	١	٥
		ـــ ب ـــ		
وعلى الخصاصة	يسغبوا	محمد بن سعيد البوصيري	٢	٥٠
إذا لم	الذنبا	عمر يحيى	١	٧٩
فما طعم	الذوائبِ	عاتكة المرّية	٥	٧٣
		ـــ ت ـــ		
وربّت	هتيتُ	عروة بن الورد	١	٢١
فإنّ حميتنا	حميتُ	عروة بن الورد	٢	٤٤
		ـــ د ـــ		
إني امرؤ	واحدُ	عروة بن الورد	٣	١٢
وقائلة	جودُها	حاتم	٢	٢٠
ولو أني	انفرادا	المعرّي	٢	٣٨
لهم جُلُّ	رفدا	المقنع الكندي	٢	٢٣
أخٌ	جوادا	–	٢	٢٤
تقول	مقعدا	حطائط	٤	٢٥
جهدُ	الجودِ	–	١	٢٦
يجود	الجودِ	–	١	١٥
تراه	المقدَّدِ	دريد بن الصمة	٢	٢٢
ويبقى	زادي	عمرو بن معد يكرب	١	٢٤

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		— ر —		
آثرتَ	الأذخارُ	الفرزدق	١	٣٩
ما آثروك	الإثَرُ	الحطيئة	١	٧
فما أنت	أنظارُ	ابن سناء الملك	٢	٣٣
ونفس	يؤثَرُ	ابن سناء الملك	١	٣٢
فإن المجد	خيرُ	–	٣	٣١
والمجد	إقتارُ	الجواهري	١	٣١
حوشيت	الإيثار	–	١	٢٢
مَن كابن	مصطبرا	خليل مردم	٣	٧٨
والمجد	ندخرُه	طرفة بن العبد	٢	٧٩
المؤثرون	غدرا	خليل مردم	١	٣٢
وحملتَ	بالإيثارِ	البزم	٢	٣٢
شهد	الفجارِ	ابن الرومي	٣	٣٣
يريح	مقرِ	عروة بن الورد	١	٢١
آثرت	إيثاري	–	١	٣٣
		— س —		
إذا أرسلوني	الممارسُ	يزيد بن الطثرية	٢	٢٦
طلبت	نسّي	علي بن الجهم	٢	٢٩
		— ض —		
أخوك	العرضِ	–	١	٣٢
وأستنقذ	الدحضِ	طرفة بن العبد	٣	٢٣

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ ع ـ		
كم ظبية	تتوجعُ	عمر أبو ريشة	٣	٨٠
لحافي	مقنّعُ	–	٢	٢٨
بكرَ	تصنعُ	المثلم بن رباح	٣	٢٧
إنّ أخاك	لينفعكْ	–	٢	٤٢
		ـ ف ـ		
إذا قلت	أعجفُ	–	٢	٢٧
		ـ ق ـ		
وأين	أغدقا	الطباطبائي	٣	٣٠
		ـ ل ـ		
ليس العطاء	قليلُ	المقنع الكندي	١	٢٤
تقول	رجالُ	أبو نواس	٢	٣٨
كريمٌ	أناملُهْ	–	٤	٥٨
رأى	تجلّت	ـ	٤	٢٨
ساشكر	جلّت	ـ	١	٢٨
وزادِ	الفعلِ	–	١	٢٥
تلك ابنة	الأموالِ	حسان بن حنظلة	٢	٢٦
ولّما وليت	مالي	جرير	١	٣٦
سأقدح	أهلي	–	١	٥٢
		ـ م ـ		
ولست	طعامُ	النابغة الذبياني	١	٢٥

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
أبى	نكرمُ	عبيد الله بن عبد الله	٢	٢٩
أهن	مقسّما	–	٤	٢٠
جعلنا	المغانمِ	حسان بن ثابت	١	٥٠
ونحن	المقاسمِ	الفرزدق	٦	٤٣
وإني لأطوي	جسمي	علي بن أبي طالب	٣	٧٧
ياسادة	فمي	صفي الدين الحليّ	٢	٦١
فنادِ	تكتتمْ	حسان بن ثابت	٢	٥٠
ـــ ن ـــ				
أمتّ	تهونُ	الشافعي	٣	٥٧

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأمثال

المثـل	الصفحة
«أحبَّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك»	٦٦
«الطمع رِقٌّ مؤبَّد»	٧٧
«عامِل الناس بما تحب أن يعاملوك به»	٦٦
«لك ما أبكي، ولا عبْرَة بي»	٧٧
«ما استحقّ أن يولد من عاش لنفسه فقط»	٣١
«مَنْ آثر الخير سادبه ذكره، وتوفّر عليه أجره»	٣٧
«من أفضل المكارم: عفو المقتدر، وجود المفتقر»	٢٩

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

آل شبير الخاقاني، محمّد محمّد طاهر:

علم الأخلاق (النظريّة والتطبيق)، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧م.

الآلوسي، محمود شكري:

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الأخفش الأصغر:

كتاب الاختيارين، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

ابن الأزرق، أبو عبدالله محمد:

بدائع السلك في طبائع الملك، تحتيق:علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام العراقية.

الأعلم الشنتمري، أبو الحجّاج يوسف بن سليمان بن عيسى:

شرح حماسة أبي تمّام، «تجلّي غرر المعاني عن مثل صور الغواني والتحلّي بالقلائد من جوهر الفرائد في شرح الحماسة»، تحقيق وتعليق: د. علي المفضل حمّودان. مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، م٢، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

أمين، أحمد:

كتاب الأخلاق، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م.

www.mtenback.com

البابي، تقيّ الدين عبدالملك:

نزهة الناظرين في تفسير آيات من كتاب ربّ العالمين. المطبعة الميمنيّة. مصر، ١٣٠٨هـ.

البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد:

كتاب الحماسة، رواية أبي العباس أحمد بن محمد، ضبطه: لويس شيخو، بيروت، ١٩١٠م.

البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل:

- صحيح البخاري، ترقيم: د. مصطفى البغا، دار ابن كثير/اليمامة، دمشق ١٩٨٧م.
- صحيح البخاري، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

بدوي، عبدالرحمن:

الأخلاق النظريّة، وكالة المطبوعات، الكويت، ط٢، ١٩٧٦م.

البرقوقي، عبدالرحمن:

شرح ديوان المتنبّي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

البروسوي، إسماعيل حقّي:

تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت. لبنان، ط٧، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

البزم:

ديوان البزم، شرح سليم الزركلي، عدنان مردم بك، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ج١.

www.mtenback.com

البكري، أبو عبيد:

فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عبّاس، د. عبد المجيد عابدين، دار الأمانة، مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

البوصيري، محمّد بن سعيد:

ديوان البوصيري، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، وأولاده، مصر، ط١، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

البيهقي، إبراهيم بن محمّد:

المحاسن والمساويء، تحقيق: محمّد سويد، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

الترمذي، الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة:

سنن الترمذي، ترقيم أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، د.ت.

أبو تمّام، حبيب بن أوس الطائي:

ديوان أبي تمّام، مراجعة: د. محمّد عزّت نصر الله، دار الفكر للجميع، بيروت.

التهامي، أبو الحسن علي بن محمد:

ديوان أبي الحسن التهامي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

التوحيدي، أبو حيّان علي بن محمد بن العباس:

- الإمتاع والمؤانسة، تصحيح وضبط: أحمد أمين أحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

- البصائر والذخائر: تحقيق: إبراهيم الكيلاني، مطبعة الإنشاء، دمشق.

www.mtenback.com

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل:

العقد النفيس ونزهة الجليس، تحقيق: قسم التحقيق بدار الصحابة للتراث بطنطا، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

الجابي، سليم:

نظريّة جذور الأخلاق، مطبعة نضر.

جاد المولى، محمّد أحمد:

الخلق الكامل، المطبعة العثمانيّة المصريّة، ط١، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

الجرجاني، علي بن محمّد:

التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، القاهرة.

الجزائري، أبوبكر جابر:

منهاج المسلم، نشر مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنّورة. توزيع دار الفكر. بيروت، ط١، ١٩٥٥م.

جرير بن عطية الخطفي:

ديوان جرير، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

الجواهري، محمد مهدي:

ديوان الجواهري. دار العودة، بيروت، م٣.

الجيلاني، عبدالقادر:

الغنية لطالبي طريق الحقّ، دار الألباب، دمشق، د.ت.

حاتم الطائي، أبو سفانة، حاتم بن عبد الله:

ديوان حاتم الطائي، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

www.mtenback.com

الحاتمي، أبو علي محمّد بن الحسن بن المظفّر:

حلية المحاضرة في صناعة الشعر، تحقيق: د. جعفر الكتّاني. الجمهورية العراقيّة، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر. سلسلة كتب التراث (٨٢)، ١٩٧٩م، ج١.

حسّان بن ثابت الأنصاري:

ديوان حسّان بن ثابت، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد:

مسند أحمد. ترقيم دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩١م.

الحلي، صفي الدين:

ديوان صفي الدين الحلي، دار صادر، بيروت، د.ت.

الحميري، السيّد:

ديوان السيّد الحميري. تحقيق: شاكر هادي شكر، قدّم له: محمّد تقيّ الحكيم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، مطبعة سميا، بيروت.

خطّاب، محمود شيت:

أقباس روحانيّة، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

خليفة، عبداللطيف محمّد:

ارتقاء القيم، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة المعرفة (١٧٣)، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

الدجوي:

إتمام فتح الخلاّق في مكارم الأخلاق. تحقيق: علاء الدين عزتي، دار إقبال، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

www.mtenback.com

ابن دريد:

جمهرة اللغة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد الدكـــن، ط١، ١٣٤٥هـــ.

الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر:

التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت. المطبعة البهيّة المصريّـــة بميدان الأزهر. مصر، ط٣، ١٣٠٢هـــ.

الراغب الأصبهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد:

محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار مكتبة الحياة، لبنـــان، د.ت.

رضا، أحمد:

معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٧٧هـــ.

رضا، علي:

الإنشاء الواضح، مكتبة دار الشرق، بيروت، ط ٧.

ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج:

ديوان ابن الرومي، تحقيق: د. حسين نصّار، دار الكتب، ١٩٨١م، ج٣.

أبو ريشة، عمر:

ديوان عمر أبو ريشة، دار العودة، ١٩٩٦م.

زاهر، محمّد ضياء:

القيم في العمليّة التربويّة، مصر، مركز الكتاب للنشر، ١٩٩١م.

الزمخشري، محمود بن عمر:

أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـــ/١٩٧٩م.

www.mtenback.com

ابن سعيد الحميري:

نشوان، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، عالم الكتب، بيروت.

سلامة، إبراهيم:

خلق ودين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

ابن سناء الملك:

ديوان ابن سناء الملك، مراجعة د. محمّد عبدالحقّ، مطبعة مجلس دائرة، المعارف العثمانيّة بحيدرأباد الدكن، الهند، ط١.

الشافعي، محمّد بن إدريس:

ديوان الشافعي. تحقيق: زهدي يكن. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١م.

الشرباصي، أحمد:

وسائل تقدّم المسلمين. مؤسّسة المطبوعات الحديثة.

الشريف المرتضى:

ديوان الشريف المرتضى، تحقيق: رشيد الصغار، راجعه وترجم أعيانه: مصطفى جواد، طبع دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨، ج٣.

شوقي، أحمد:

الشوقيات، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م، ج٣.

شيخو، لويس:

مجاني الأدب في حدائق العرب، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت.

www.mtenback.com

صفوت، أحمد زكي:

جمهرة خطب العرب في عصور العربيّة الزاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م.

الطباطبائي:

ديوان الطباطبائي، مطبعة العرفان، صيداء، ١٣٣٢هـ.

الطبري، أبو جعفر محمّد بن جرير:

جامع البيان في تفسير القرآن، ط١، ١٣٢٩هـ، المطبعة الكبرى الأميريّة ببولاق، دار المعرفة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

طرفة بن العبد:

ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: د. علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

عبّاس، فضل حسن:

حماسيّات مختارة في تهذيب النفس الأمّارة، دار البشير، عمّان، الأردن، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ابن عبد الله، عبد العزيز:

الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، دار الطباعة المغربيّة، تطوان، ١٩٥٣م.

عروة بن الورد:

ديوان عروة بن الورد، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

عسّاف، أحمد محمّد:

قبسات من حياة الرسول، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

www.mtenback.com

عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي، جمع وتحقيق: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، بدمشق، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م

العوف، بشير:

قطوف الأدب في قصص من طرائف تاريخ آداب العرب، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

الغزالي، أبو حامد محمّد بن محمّد:

إحياء علوم الدين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

الغزالي، محمّد:

خلق المسلم، دار الكتاب العربي بمصر، ط٣، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.

الغزّي، أبو البركات بدر الدين محمّد:

آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوّة، تحقيق: د. عمر موسى باشا، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

ابن فارس، أحمد:

معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، في ١٣٦٦هـ.

الفاطمي، تميم بن المعزّ لدين الله:

ديوان تميم بن المعزّ لدين الله الفاطمي، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمّد علي النجار، محمّد حسن الأعظمي، علي عبدالعظيم محمّد كامل حسين، مطبعة دار الكتب المصريّة، ط١، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة:

ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشرحه: إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

www.mtenback.com

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب:

القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

القالي، أبو عليّ إسماعيل بن القاسم:

الأمالي في لغة العرب، دار الكتب، العلميّة، بيروت، لبنان.

القرطبي، شمس الدين أبو عبدالله محمّد بن أحمد:

الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبدالعليم البردوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦م.

القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر:

بهجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق: محمّد مرسي الخولي، مراجعة: د. عبد القادر القطّ، الدار المصرية للتأليف والنشر.

ابن قيّم الجوزيّة، شمس الدين محمّد بن أبي بكر:

- روضة المحبّين ونزهة المشتاقين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

- طريق الهجرتين وباب السعادتين، المطبعة السلفيّة، القاهرة، تصحيح وإخراج: محبّ الدين الخطيب، ١٣٧٥هـ.

الكاشاني، الفيض:

الحقائق في محاسن الأخلاق، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر:

تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس. بيروت، ط١، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

كعكو، أحمد حسين:

محاسن الجود والكرم، مكتبة قباء. سوق حلب، ط١، ١٤٠٣هـ.

www.mtenback.com

الكلاباذي، أبو بكر محمّد:

التعرّف لمذهب أهل التصوّف، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، و د. طه عبد الباقي سرور، طبع دار إحياء الكتب، العربيّة، عيسى البابي الحلبي. القاهرة، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

المبّرد، أبو العبّاس محمّد بن يزيد:

الكامل، تحقيق: د. محمد أحمد الدالي، مؤسّسة الرسالة الثانية، ١٩٩٣م.

مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة:

المعجم الوسيط، ١٩٦٠.

محمّد، سلطان:

الفلسفة العربيّة والأخلاق. مطبعة المعارف بمصر، القاهرة، ١٣٢٩هـ.

مردم، خليل:

ديوان خليل مردم، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٣٩هـ.

المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن:

شرح ديوان الحماسة، نشره أحمد أميه وعبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج القشيري:

صحيح مسلم. ترقيم محمّد فؤاد عبدالباقي. دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٩٨٥م.

المعريّ، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان:

- ديوان سقط الزند، المطبعة الأدبيّة، بيروت، ١٣٠١هـ/١٨٨٤م.
- ديوان سقط الزند، مطبعة الهنديّة، مصر، ١٣١٩هـ /١٩٠١م.
- ديوان اللزوميّات، دار الكتاب العربي، بيروت ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

www.mtenback.com

مغنيّة، محمّد جواد:

فلسفة الأخلاق في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.

المقدسي، أحمد بن محمّد بن عبدالرحمن بن قدامة:

مختصر منهاج القاصدين، دار الإخاء، بيروت.

المقري، أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيى:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عبـــاس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

المقّري، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد:

المختار من نوادر الأخبار، دار عمّار، مؤسّسة الرسالة. بيروت، تحقيـق: أنور أبو سويلم، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

المكّي، أبو طالب محمّد بن أبي الحسن بن عبّاس:

قوت القلوب في معاملة المحبوب، المطبعة الميمنيّة بمصر، ١٣١٠هـ.

ابن منظور، جمال الدين محمّد بن مكرم:

- لسان العرب. دار الفكر، بيروت، د.ت.
- المنتخب والمختار في النوادر والأشعار، تحقيق: عبدالرزاق حسـين، دار عمّار، الأردن.عمّان، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

ابن منقذ، أسامة:

لباب الآداب، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمّد بن الحسن:

شرح ديوان الحماسة، نشره: أحمد أمين وعبدالسلام هارون، القـاهرة، ج٣، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥١م.

www.mtenback.com

مطران، خليل:

ديوان الخليل، مطبعة دار الهلال، مصر ١٩٤٦م، ج٢.

ناصيف، إميل:

أروع ما قيل في الحكمة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

النجار، عبدالوهاب:

قصص الأنبياء، تحقيق: عبدالله بدران، علي عبدالحميد بك، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، دار الخير.

النحلاوي، عبدالرحمن:

أصول التربية الإسلاميّة وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م،

أبو نواس، الحسن بن هانئ:

ديوان أبي نواس، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمّد بن حسين:

تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان على هامش تفسير الطبري، المطبعة الكبرى ببولاق، ط١، ١٣٢٩هـ، دار المعرفة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

يحيى، عمر:

ديوان عمر يحيى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠م.

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله:

ديوان المعاني، السفر الأوّل، سلسلة المختارمن التراث العربي، العدد ٣٢، اختار النصوص وقدّم لها وعلّق عليها: أحمد سليمان معروف، منشورات وزارة الثقافة، سورية.

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com